المبحث الثانى

البناء العاطفى والنفسى للطفل

«ما يعلم أهل السماء؛ وأهل الأرض، ما يثيبُ الله العبدَ على الشيء يفرح به عيالَه وأهلَه وولده».

الحسن البصرى

(كتاب العيال لابن أبى الدنيا (٢/ ٥٥٨)).

البناء العاطفى والنفسى للطفل

تمهيد :

تشكل العاطفة مساحة واسعة فى نفس الطفل الناشئ، وهى تكوّن نفسه، وتبنى شخصيته، فإن أخذها بشكل متوازن، كان إنسانًا سويًا، فى مستقبله، وفى حياته كلها، وإن أخذها بغير ذلك، سواء بالزيادة أو النقصان، تشكلت لديه عقد، لا تُحمد عُقْباها، فالزيادة تجعله مدللاً، لا يقوم بتكاليف الحياة بجد ونشاط، ونقصانها يجعله إنساناً قاسياً عنيفاً على كل من حوله، لذلك فإن البناء العاطفى، له أهمية خاصة فى بناء نفس الطفل وتكوينه، وهذا البناء يلعب فيه الدور الأكبر الوالدان، إذ هما المصدر الأساسى لأشعة العاطفة التى تبنى نفسه، وهما الركن الرشيد الذى يأوى إليه الطفل؛ لينعم بحرارة العاطفة، ونعمة الأبوة والأمومة، لذلك نجد فى نهاية هذا الفصل، اهتماماً كبيراً لصنفين من الأطفال، يقلل الوالدان، أو أحدهما، العطف عليه، وهما البنت واليتيم، ونظراً لاهتمام الرسول ﷺ بالأطفال، فإنه عنى بهما عناية خاصة، ومنزلة خاصة، فحبذا المجتمع المسلم يقوم بدور الأب، لهذا اليتيم، وحبذا الوالدان يهتمان بتربية البنت، ورعايتها؛ ومساواتها مع أخيها الذكر .

وبقى السؤال: كيف نبنى عاطفة الطفل، ونؤدى له حقه، ليكون إنساناً سوياً فى حياته؟ للجواب عن هذا السؤال، كانت هذه الجولة فى الأحاديث النبوية الشريفة، واستنباط هذه الأسس، التى بتطبيقها نسير على هدى ونور بَينين .

الأساس العاطفى الأول : القُبْلَة، والرأفة، والرحمة بالأطفال :

إن للقُبْلة دوراً فعالاً فى تحريك مشاعر الطفل وعاطفته، كما أن لها دورًا كبيرًا فى

تسكين ثورانه وغضبه، بالإضافة إلى الشعور بالارتباط الوثيق فى تشييد علاقة الحب بين الكبير والصغير، وهى دليل رحمة القلب والفؤاد لهذا الطفل الناشئ، وهى برهان على تواضع الكبير للصغير، وهى النور الساطع الذى يبهر فؤاد الطفل، ويشرح نفسه، ويزيد من تفاعله مع من حوله، ثم هى أولاً وأخيراً السنة الثابتة عن المصطفى ﷺ مع الأطفال .

أخرج البخارى ومسلم عن عائشة ﷺ قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبلون صبيانكم؟ فقال : «نعم» قالوا : لكنا والله لا نقبل، فقال رسول الله ﷺ : «أَوَ أملِك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة» [1] .

وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة ﷺ قال : قَبّلَ النبى ﷺ الحسنَ بن على ـ رضى الله عنهما ـ فقال الأقرع بن حابس : إن لى عشرة من الولد، ما قبلت منهم أحداً، فقال رسول الله ﷺ : «من لا يرحم لا يُرحم» . وروى ابن عساكر عن أنس ﷺ قال : كان ﷺ أرحم الناس بالصبيان والعيال [2] .

وإن الرحمة بالأطفال، والشفقة عليهم، صفة من صفات النبوة المحمدية، وهى طريق لدخول الجنة، والفوز برضوان الله تعالى :

روى البخارى عن أنس ﷺ قال: جاءت امرأة إلى عائشة ـ رضى الله عنها ـ فأعطتها ثلاث تمرات، فأعطتْ كلَّ صبى لها تمرة، وأمسكت لنفسها تمرة، فأكل الصبيان التمرتين، ونظرا إلى أمهما، فعمدت الأم إلى التمرة، فشقتها، فأعطت كل صبى نصف تمرة، فجاء النبى ﷺ فأخبرته عائشة، فقال ﷺ : «وما يعجبك من ذلك، لقد رحمها الله، برحمتها صبييها» .

ومن صور رحمة الرسول ﷺ بالأطفال: ما أخرجه البخارى عن أنس ﷺ : «إنى

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٦/ ٧٠) .

(٢) صحيح. انظر: صحيح الجامع رقم (٤٧٩٧) ورواه مسلم وأبو الشيخ .

لأدخل فى الصلاة، وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء صبى، فأتجوز فى صلاتى؛ لما أعلم من وَجْدِ أمه من بكائه» . رواه الخمسة إلا أبا داود .

وعن أبى قتادة ﷺ قال : «كان رسول الله ﷺ يصلى بالناس، وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها» أخرجه الستة إلا الترمذى [1] .

ومن رحمته ﷺ بالطفل : أنه لا يفرق بينه وبين أمه :

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يؤتى بالسَّبى فيعطى أهل البيت جميعاً؛ كراهية أن يفرِّقَ بينهم. إنه رحمة للعالمين أجمعين ﷺ .

ومن رحمته ﷺ بالطفل: أنه كان لا يطيل الصلاة إذا أحس بصبى يبكى، وهو يريد تطويلها فيقصرها ويخففها :

روى البخارى عن أبى قتادة ﷺ عن النبى ﷺ قال: «إنى لأقومُ فى الصلاة أريدُ أن أُطوِّلَ فيها، فأسمع بكاءَ الصبى، فأتَجَوَّزُ فى صلاتى؛ كراهيةَ أن أَشُقَّ على أُمِّه» . ورواه النسائى وأبو داود وابن ماجه و أحمد .

وفى رواية للبخارى عن أنس ﷺ قال: ما صليتُ وراء إمامٍ قطُّ، أخفَّ صلاةً، ولا أتَمَّ من النبى ﷺ، وإن كان ليسْمَعُ بكاء الصبى، فيخفف مخافة أن تفْتَنَ أُمُّهُ .

وروى البخارى عن أنس ﷺ أن النبى ﷺ قال : «إنى لأدخل فى الصلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبى، فأتَجَوَّزُ فى صلاتى، مما أعلم من شدة وَجْدِ أمه من بكائه» . وفى رواية : «فأَتَجَوَّزُ فى صلاتى كراهيةَ أن أشُقَّ على أمه» .

وإن القلب ليعجب عندما يرى أو يسمع الصغار يعلمون الآباء الرحمة بالحيوان، ويذكرونهم برحمة الله بهم، فقد ذكر الفخر الرازى فى تفسيره (٢٢/ ١٣) : أن صياداً كان يصيد السمك، فصاد سمكة، وكان له ابنة، فأخذتها ابنته، فطرحتها

(١) ورواه ابن خزيمة فى صحيحه (١ / ٣٨٣، ٢ / ٤١) .

فى الماء، وقالت : إنها ما وقعت فى الشبكة إلا لغفلتها . قال الفخر الرازى معلقاً :

إلهنا، تلك الصبية رحمت غفلة هاتيك السمكة، وكانت تلقيها مرة أخرى فى البحر، ونحن قد اصطادتنا وسوسة إبليس، وأخرجتنا من بحر رحمتك، فارحمنا بفضلك، وخلصنا منها، وألقنا فى بحار رحمتك مرة أخرى .

ومن صور شدة رحمة الأمهات بأطفالهن : ما أخبرنا بها رسول الله ﷺ، هذه الصورة العجيبة التى لها دلالات على تفجر الرحمة من قلب الأم على طفلها ـ ألا ليت كل أم تغدق بمثل هذه الرحمة على وليدها :

أخرج الإمام أحمد والبخارى ومسلم فى صحيحيهما و النسائى عن أبى هريرةﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «بينما امرأتان، معهما ابنان لهما، إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا، فدعاهما سليمان، فقال: هاتوا السكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى: يرحمك الله، هو ابنها لا تشقه، فقضى به للصغرى» . وصدق الله العظيم الذى أخبر عن سليمان : ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص] .

ونلاحظ قسوة قلب الأم الكبرى فى هذه القصة، فلقد سرق الذئب ابنها، ولم تظهر حزنها عليه، بل أظهرت قسوة لا يتصورها عقل رجل، فضلاً عن قلب امرأة، فلجأت إلى سرقة ابن زميلتها؛ لأنه لا يعقل أن يكونا متشابهين تشابهًا تمامًا، كما لا يعقل ألا تميز الأم ابنها من بين طفلين، فالحديث دلّ على قسوة قلب الأم الكبرى، ورحمة قلب الصغرى .

كما نلاحظ كمال عدل سيدنا سليمان ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ فكمال العدل حل لكثير من المشاكل بين الناس، والعدل المطلق إنما هو لله تعالى .

ومن تطبيق الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لسنة تقبيل الطفل : ما رواه ابن أبى

الدنيا فى كتاب العيال (١/ ٤٢٤) عن أبى عثمان النهدى قال : رأى المنصفقُ عمرَ ابن الخطاب ﷺ يقَبِّلُ ابنهُ، فقال : تُقبل ابنك وأنت خليفة ؟! لو كنتُ خليفة ما قَبَّلتُ ابنى، فقال : ما ذنبى إن كان الله ـ تبارك وتعالى ـ قد نزع منك الرحمة، إنما يرحم الله ـ عز وجل ـ من عباده الرحماء.

هكذا حولت التربية النبوية عمر بن الخطاب من القسوة إلى الرحمة، ومن الوَأد إلى المداعبة، ومن الفظ إلى الرحيم.

وهذا مثال آخر من موادعة عمر للأطفال، وتحببه لهم، وخدمته إياهم :

روى ابن أبى الدنيا (١/ ٤١٨) عن هارون بن رئاب، حدثنا سنان بن سَلَمةَ بالبحرين قال : كنتُ فى غلمة بالمدينة نلتقط البلح، فأبْصَرَنَا عمرُ، وسعى الغلمانُ، وقمتُ، فقلت:يا أمير المؤمنين، إنما هو ما ألقت الريح، قال: أرنى أنظر، فلما أريتُه، قال: انطلق، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، وَلِّى هؤلاء الغلمان، إنك لو تواريتَ انتزعوا ما معى، قال: فمشى معى حتى بلغتُ مأمنى .

ومن ذلك أيضًا : تقبيل الابنة إذا كانت مريضة، وسؤالها عن صحتها :

روى ابن أبى الدنيا (١/ ٤٠٨) ـ بسند حسن لغيره ـ عن البراء قال: اشترى أبو بكر من عازب رَحْلاً، فحملتُهُ مَعَه، فدخلتُ معه إلى أهله، فإذا عائشة مضطجعةٌ وهى محمومةٌ فأكبّ عليها، وقبَّل خَدَّها، وقال: كيف تجديك يا بُنية! .

ومن شدة رحمته ﷺ بالأطفال : أنه أمر ألا تقتل أطفال الكفار، ونهى عن ذلك :

فعن ابن عمر ﷺ: «أن امرأة وُجدت فى بعض مغازى النبى ﷺ مقتولةً، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان» . متفق عليه .

وكانت وصيته لقواد الجيش ووصية خلفائه الراشدين المهديين من بعده: «ألا تقتلوا صبيًا ولا امرأة...» .

بل إن صبيان الكفار ليضربونه بالحجارة عند ذهابه للطائف وعودته منها، فيسيل دمه ﷺ على الأرض، ولا يرفع رجله ولا يضعها على الأرض إلا أُصيبت بحجر، وينزل عليه جبريل وملك الجبال ويستأذنه فى أن يطبق عليهم الجبلين فيموتوا جميعاً، فيرفض الرسول ﷺ ويقول : «أرجو من الله ـ تعالى ـ أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى» وقد كان ذلك وتحقق أمله ودعاؤه. وصدق الله العظيم : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [الأنبياء] فهو الرحمة المهداة، وتعاليمه وشرعه كلها رحمة وأى رحمة .

الأساس العاطفى الثانى : المداعبة والممازحة مع الأطفال :

سنعيش سويًا مع طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة، نأخذ منها الدروس العملية من رسول الله ﷺ، فى مداعبة الأطفال؛ تارة بالركض، وأخرى بالحمل وثالثة بتصغير الاسم، ورابعة بالمضاحكة، إلى غير ذلك .

وهذه الأعمال إن لم يقم بها الآباء لأنها واجب تربوى، فهم مطالبون بها للاقتداء برسول الله ﷺ : روى الطبرانى عن جابر ﷺ قال : كنا مع رسول الله ﷺ، فدعينا إلى الطعام، فإذا الحسين يلعب فى الطريق مع صبيان، فأسرع النبى ﷺ أمام القوم، ثم بسط يده، فجعل يفرّ ها هنا وهناك، فيضاحكه رسول الله ﷺ، حتى أخذه، فجعل إحدى يديه فى ذقنه، والأخرى بين رأسه وأذنيه، ثم اعتنقه وقبله، ثم قال : «حسين منى، وأنا منه، أحب الله من أحبه، الحسن والحسين سبطان من الأسباط»[1] .

وروى البخارى فى الأدب المفرد والطبرانى عن أبى هريرة ﷺ قال : سمعت أذناى هاتان، وبصرت عيناى هاتان، رسول الله ﷺ؛ أخذ بيديه جميعاً؛ بكفى الحسن أو الحسين، وقدميه على قدم رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ يقول: «ارْقَه» قال : فرقى

(١) حسن: ورواه البخارى فى الأدب والترمذى وابن ماجه والحاكم . انظر : صحيح الجامع، رقم (٣١٤٦) . ويطلق السبط على ولد البنت، والحفيد على ولد الابن .

الغلام، حتى وضع قدميه على صدر رسول الله ﷺ، ثم قال رسول الله ﷺ: «افتح فاك؛ ثم قبله» ثم قال: «اللهم أحبه، فإنى أحبه». وقد جاء فى الإصابة وزاد: حزقة؛ حزقة، تَرِقَّ عين بَقّة. وجاء فى النهاية لابن الأثير: إنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يرقص الحسن والحسين، ويقول: «حزقة؛ حزقة، ترق عين بقة» فيرقى الغلام، حتى وضع قدميه على صدره. الحزقة: الضعيف، المتقارب الخطو من ضعفه، وقيل: القصير العظيم البطن، فذكرها على سبيل المداعبة والتأنيس له، وترق: بمعنى اصعد، وعين بقة كناية عن صغر العين [1].

وأخرج البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود عن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان لى أخ، يقال له: أبو عمير ـ وهو فطيم ـ كان إذا جاءنا قال: «يا أبا عمير، ما فعل النُّغير؟!» لنغر كان يلعب به.

وفى رواية لأحمد (٣/ ١٨٨ و٢٠١-٢١٢) عن أنس ﷺ أن النبى ﷺ، كان يدخل على أم سُلَيم، ولها ابن من أبى طلحة، يكنى أبا عمير، وكان يمازحه، فدخل عليه، فرآه حزيناً، فقال: «ما لى أرى أبا عمير حزينًا» فقالوا: مات نغره، الذى كان يلعب به، قال: فجعل يقول: «أبا عمير، ما فعل النغير؟!» وتقدم قول الحافظ ابن حجر فى الفتح: أن هذا الحديث فيه: جواز المازحة، وتكرير المزاح، وأنها إباحة سنة لا رخصة، وأن ممازحة الصبى الذى لم يميز جائزة، وتكرير زيادة الممزوح معه، وفيه ترك التكبر والترفع، والفرق بين كون الكبير فى الطريق فيتواقر، أو فى البيت فيمزح.

وأخرج الترمذى وأبو داود عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يا ذا الأذنين» يعنى: يمازحه [2].

وروى الترمذى وقال: حديث غريب عن أنس ﷺ أنه قال: كنانى رسول

(١) انظر كتاب: سيدنا محمد رسول الله للشيخ عبد الله سراج الدين (ص١٥٧).
(٢) ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب العيال (١/ ٣٧٣) بسند حسن، قاله محققه.

الله ﷺ ببقلة، كنت أجتنيها [1].

وأخرج البخارى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما قدم رسول الله ﷺ مكة، استقبله أُغيلمة بنى المطلب، فحمل واحداً بين يديه، وآخر خلفه .

وأخرج البخارى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن أسامة كان ردف النبى ﷺ من عرفة إلى المزدلفة، ثم أردف الفضل من المزدلفة إلى منى، فكلاهما قال : لم يزل النبى ﷺ يلبى حتى رمى جمرة العقبة .

وعن عبد الله بن شداد قال : بينما رسول الله ﷺ يصلى بالناس، إذ جاءه الحسين، فركب عنقه، وهو ساجد، فأطال السجود بالناس، حتى ظنوا أنه قد حدث أمر، فلما قضى صلاته، قالوا : قد أطلتَ السجود يا رسول الله، حتى ظننا أنه قد حدث أمر، فقال : «إن ابنى قد ارتحلنى، فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته».

قال العراقى [2] : رواه النسائى، ورواه الحاكم، وقال : صحيح على شرط الشيخين .

واقتدى الصحابة رضوان الله عليهم برسول الله ﷺ، فسارعوا إلى ممازحة ومداعبة أطفالهم، وكانوا ينزلون إلى منازلهم، ويتصابون لهم، ويلاعبونهم :

روى الديلمى وابن عساكر عن أبى سفيان قال : دخلت على معاوية، وهو مستلق على ظهره، وعلى صدره صبى أو صبية، تناغيه، فقلت : أمط عنك هذا يا أمير المؤمنين، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من كان له صبى، فليتصاب له» [3] .

وقال عمر رضي الله عنه [4] : «ينبغى للرجل أن يكون فى أهله كالصبى ـ أى فى الأنس

(١) إسناده ضعيف . انظر: جامع الأصول (٩/ ٩١) تحقيق الأرناؤوط .
(٢) الإحياء (٢/ ٢١٨) .
(٣) ضعيف . انظر الجامع، رقم (٥٨١٢) .
(٤) كنز العمال (١٦/ ٥٧٣) رواه ابن أبى الدنيا والدينورى وعبدالرزاق فى الجامع .

والبشر وسهولة الخلق والمداعبة مع أولاده ـ فإذا التمس ما عنده وجد رجلاً»

وتحقيقاً لذلك كان الصحابى زيد بن ثابت ﷺ، وهو أعلم الأمة بالقرآن كان يتفكه فى بيته مع أهله وأولاده . روى البخارى فى الأدب المفرد عن ثابت بن عبيد قال : «ما رأيت أحداً أجلُّ إذا جلس مع القوم، ولا أفكه فى بيته، من زيد بن ثابت» . ورواه الحافظ فى الإصابة . بلفظ «أوقر» بدلاً من «أجلّ» ومعنى أفكه من الفكاهة : الممازحة والانبساط .

فالأب بحاجة إلى التمييز بين المجالس، فمجالس الرجال لها أحاديثها ومجالس أولاده فى البيت مع أهله لها أحاديثها، فالفصل بينهما عين الحكمة والسداد.

بل إن مجالس الكبار تحتاج إلى فصل: بين أن تكون منبسطة فيها المزاح، وبين أن تكون جدًّا لا هزل فيها، فكل بحسبه:

روى البخارى فى«الأدب المفرد»عن بكر بن عبد الله قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يتباذحون بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال .

يتبادحونو إن رسول الله ﷺ ليبارك فى حى من الأحياء ـ حى كنانة ـ يتمتعون بالفكاهة والمزاح، لما فى المزاح من نشاط نفسى وتنشيط للدورة الدموية، ودفع لاستقبال الحياة بوجه مشرق :

روى البخارى فى «الأدب المفرد»عن ابن أبى مُليكة قال : مزحت عائشة ـ رضى الله عنها ـ عند رسول الله ﷺ فقالت أمها : يا رسول الله، بعض دُعابات هذا الحى من كنانة! قال النبى ﷺ : «بل بعض مزاحنا هذا الحى» . فالمزاح فى البيت مطلوب أكثر من غيره من المجالس، لما يزيد فى حيوية البيت ونشاطه النفسى .

حتى قال الصحابة رضوان الله عليهم ذات مرة للنبى ﷺ : يا رسول الله إنك تداعبنا! قال : «إنى لا أقول إلا حقًا» . رواه البخارى فى «الأدب المفرد» والترمذى وأحمد .

وإن عمر ﷺ ليعزل أحد عماله عن الرئاسة، لأنه وجد منه دليلاً واضحاً على قسوة قلبه، تجاه أولاده : فعن محمد بن سلام قال : استعمل عمر بن الخطاب رجلاً على عمل، فرأى الرجل عمر يقبل صبيًا له، فقال الرجل : تقبله وأنت أمير المؤمنين؟! لو كنت أنا ما فعلته، قال عمر : فما ذنبي إن كان نزع من قلبك الرحمة! إن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء ونزعه عن عمله، فقال:

«أنت لا ترحم ولدك، فكيف ترحم الناس؟!»[1] .

بهذه المداعبة والملاعبة والتصابى ومحاكاة الطفل، كان تعامل رسول الله ﷺ مع الأطفال، وهو يغذى نفوسهم بهذه العاطفة الصادقة الطيبة، بعيداً عن الجفاء والقسوة، وعدم إعطاء الطفل حقه .

الأساس العاطفى الثالث : الهدايا والعطايا للأطفال :

للهدايا أثر طيب فى النفس البشرية عامة، وفى نفوس الأطفال أكثر تأثيراً وأكبر وقعاً، وقد سن رسول الله ﷺ قاعدة للحب بين الناس، فنصح الأمة بقوله : «تهادوا تحابوا»[2]. وهذا قانون عام .

والرسول ﷺ بين لنا عمليًّا هذا الركن القوى فى بناء عاطفة الطفل، وتحريكها، وتوجيهها، وتهذيبها :

أخرج مسلم عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بأول الثمر فيقول : «اللهم بارك لنا فى مدينتنا، وفى ثمارنا، وفى مدنا، وفى صاعنا، بركةً مع بركة» ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان .

وروى الطبرانى عن إسحاق بن يحيى بن طلحة، قال : كنت مع عمى عيسى

---

(١) كنز العمال (٥٨٣/ ١٦) . رواه الدينورى .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط، والحربى فى الهدايا، والعسكرى فى الأمثال . انظر : المقاصد الحسنة، رقم الحديث (٣٥٢) .

ابن طلحة فى المسجد، فدخل السائب بن يزيد، فبعثنى إليه فقال : اذهب إلى ذلك الشيخ، فقل له : يقول لك عمى عيسى بن طلحة : هل رأيت رسول الله ﷺ؟ فذهبت إليه، فقلت له : هل رأيت رسول الله ﷺ؟ فقال : نعم، رأيت رسول الله ﷺ؟ ودخلت عليه، أنا وغلمة معى، فوجدناه يأكل تمراً فى قناع، ومعه ناس من أصحابه، فقبض لنا من ذلك قبضة، ومسح على رؤوسنا .

وروى ابن أبى الدنيا عن الحسن أو جابر بن عبد الله قال : صليت مع رسول الله ﷺ الظهر أو العصر، فلما سلم قال لنا : «على أماكنكم» قال : جرة فيها حلوى، فجعل يأتى على رجل رجل فيلعقه لعقةً لعقةً، حتى أتى على ـ وأنا غلام ـ فألعقنى لعقةً، ثم قال :«أزيدك»؟ قلت : نعم، فألعقنى لعقة، ثم قال : «أزيدك»؟ قلت : نعم، فألعقنى أخرى لصغرى، فلم يزل كذلك حتى أتى على آخر القوم . حديث مرسل رجاله رجال الصحيح، قاله محققه، وقال : أخرجه أبو الشيخ فى«أخلاق النبى ﷺ»(ص ٢٣٥) .

وروى أبو داود عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قدمت هدايا من النجاشى، فيها خاتم من ذهب، فيه فصٌّ حبشى، فأخذه رسول الله ﷺ بعود، أو ببعض أصابعه، معرضاً عنه، ثم دعا أمامة بنت أبى العاص من بنته زينب، فقال : «تحلى بهذا يا بنية!».

الأساس العاطفى الرابع: مسح رأس الطفل :

لاحظت فى الأحاديث السابقة، كيف أن النبى ﷺ كان يداعب عواطف الأطفال، بمسح رؤوسهم، فيشعرون بلذة الرحمة، والحنان، والحب، والعطف، الأمر الذى يشعر الطفل بوجوده، وحب الكبار له، واهتمامهم به، ففى زوائد ابن حبان عن أنس ﷺ، قال : كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار ويسلم على

صبيانهم، ويمسح رؤوسهم [1].

عن مصعب بن عبد الله قال: عبد الله بن ثعلبة، ولد قبل الهجرة بأربع سنين، وحمل إلى رسول الله ﷺ فمسح وجهه، وبرك عليه عام الفتح، وتوفى رسول الله ﷺ وهو ابن أربع عشرة. رواه الحاكم فى مستدركه (٣/ ٣٧٩).

وعن عبد الله بن جعفر ﷺ قال: مسح رسول الله ﷺ بيده على رأسى، قال: أظنه قال ثلاثاً، فلما مسح قال: «اللهم اخلف جعفراً فى ولده». رواه الحاكم فى مستدركه (١/ ٣٧٢) وسكت عنه.

ويضيف رسول الله إلى مسح الرأس للطفل: القيام بمسح خدى الطفل، بيديه الشريفتين، وما ذلك إلا اهتماماً به، وإدخال السرور إلى قلب الطفل:

فقد روى مسلم عن جابر بن سمرة ـ وهو من أطفال الصحابة ـ قال: صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى، يعنى صلاة الظهر، ثم خرج إلى أهله، وخرجت معه، فاستقبله ولدان ـ أى: صبيان ـ **فجعل ﷺ يمسح خدى أحدهم، واحداً واحداً، قال جابر: وأما أنا، فمسح خدى، فوجدت ليده برداً أو ريحاً، كأنما أخرجها من جُونة عطار** [2].

ومن هذا نستدل على مسح خدود الأطفال، إذا كانوا أكثر من واحد، وعدله فى معاملتهم جميعاً، وعدم التفرقة بينهم، وهذا من بدائع ملاحظته ﷺ فى تعامله مع الأطفال بالتسوية بينهم فى كل شىء.

وغدا الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يقتدون برسول الله ﷺ فى مسح رؤوس الأطفال رجالاً ونساءً:

---

(١) صحيح. ورواه النسائى. انظر: صحيح الجامع، رقم (٤٩٤٧).

(٢) جونة عطار ـ بضم الجيم وهمزة بعدها، وقد تخفف بإبدالها واواً: وهى سُليلة مستديرة، مغشاة أدماً، كالسَّفَط، يجعل فيها العطار عطره.

روى ابن أبى الدنيا فى كتاب العيال (١/ ٤١١) عدداً من الآثار منها: أن شيبة ابن نصاح بن يعقوب بن سرجس ـ مولى أم سلمة ـ أنه أتى به وهو صغير إلى أم سلمة زوج النبى ﷺ فمسحت رأسه، وبرّكتْ عليه .

وعن فاطمة بنت سعد قالت: ربما أجلسنى أبو هريرة ﷺ فى حجره... فيمسح على رأسى، ويدعو لى بالبركة .

وعن ربيعة بن كلثوم قال : رآنى سعيد بن جبير وأنا صغير فقبلنى .

الأساس العاطفى الخامس : حسن استقبال الطفل :

إن اللقاء مع الطفل لا بد منه، وأهم ما فى اللقاء اللحظات الأولى، فإذا كان اللقاء طيباً، استطاع الطفل متابعة الحديث، وفتح الحوار، والتجاوب مع المتكلم، فيفتح قلبه له، وما يدور فى خاطره، ويعرض مشاكله عليه، ويتحدث عن أمانيه له، كل هذا يحصل إذا أحسن استقبال الطفل، بفرح وحب ومداعبة وهذا ما وجه إليهﷺ بفعله إلى الأمة :

روى ابن عساكر عن عبد الله بن جعفر ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر تلقى الصبيان من أهل بيته، وإنه جاء من سفر فسبق بى إليه، فحملنى بين يديه، ثم جيء بأحد ابنى فاطمة الحسن أوالحسين ـ رضى الله عنهم ـ فأردفه خلفه، فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة [1].

الأساس العاطفى السادس: تفقد حال الطفل والسؤال عنه :

كثيراً ما يمشى الطفل وحده، فيضلّ الطريق، ويتيه فى الشارع، فإذا كان الوالدان مهتمين بحال الطفل تنبها سريعاً لشروده، وتمّ تتبع أثر الطفل، والعثور عليه أسرع ما يمكن، والعكس بالعكس، وهذه السرعة تلعبُ دوراً كبيراً فى نفس

(١) صحيح . ورواه أحمد ومسلم وأبو داود. انظر: صحيح الجامع، رقم (٤٧٦٥) .

الطفل، فالتأخير عليه يزيد من مخاوفه وآلامه وبكائه، ويشتد عذابه النفسى كلما زادت فترة تأخر وصول أحد والديه إليه ؛ لهذا سارع رسول الله ﷺ وأمر أصحابه بمساعدته، والانتشار فى الطرقات حتى يتم العثور على الحسن والحسين .

روى الطبرانى عن سلمان ﷺ قال : كنا حول رسول الله ﷺ فجاءت أم أيمن ـ رضى الله عنها ـ فقالت : يا رسول الله، لقد ضلَّ الحسن والحسين ـ رضى الله عنهما ـ قال : وذاك وأد النهار ـ يقول : ارتفاع النهار ـ فقال النبى ﷺ : «قوموا فاطلبوا ابنى» وأخذ كل رجل وجهة، وأخذت نحو النبى ﷺ فلم يزل حتى أتى سفح جبل، وإذا الحسن والحسين رضى الله عنهما ملتزق كل واحد منهما صاحبه . وإذا شجاع ـ أى: الحية الذكر، وقيل : الحية مطلقاً ـ قائم على ذنبه، يخرج من فيه شرر النار، فأسرع إليه رسول الله ﷺ فالتفت مخاطباً لرسول الله ﷺ ثم انساب ـ أى : جرى ـ فدخل فى بعض الأجحار، ثم أتاهما، فأفرق بينهما، ثم مسح وجوههما، وقال: « بأبى وأمى أنتما! ما أكرمكما على الله»، ثم حمل أحدهما على عاتقه الأيمن، والآخر على عاتقه الأيسر، فقلت : طوبى لكما، نعم المطية مطيتكما، فقال رسول الله ﷺ : «ونعم الراكبان هما، وأبوهما خير منهما » .

فأنت تلاحظ الخوف الذى حصل للحسن والحسين، حيث التزق كل واحد بالآخر خائفاً من الشجاع، ومسارعة الرسول ﷺ لفك هذا الخوف، ثم التفريق بينهما، ثم مسح وجهيهما، ثم دعا لهما، ثم أكرمهما بحملهما على عاتقه، ثم مدحهما بقوله : «ونعم الراكبان هما»، وما ذلك إلا من شدة حرصه، واهتمامه بعاطفة الطفل من أجل أن تبقى سوية سليمة متوازنة .

وفى موقف آخر يتفقد الرسول ﷺ حال أبناء أحد الصحابة، فيسأل أباهم عنهم، ويطلب إحضارهم، لينالوا من بركاته ودعائه :

روى الطبرانى ـ بسند حسن ـ عن سعيد بن تميم قال : قال لى النبى ﷺ «أين

بنوك؟» قلت : ها هم أولاء، قال : «فأتنى بهم» قال : فأتيت أهلى، فألبستهم قمصاً بيضاء، ثم أتيته بهم، فقال : «اللهم، إنى أعيذهم بكَ، من الكفر والضلالة والفقر الذى يصيب بنى آدم» .

إن المجتمع الإسلامى متكافل يشد بعضه بعضاً، ويسأل بعضه عن بعض، ومن جملة ذلك السؤال عن أحوال الأطفال، فإن ذلك يدخل المسرة إلى قلوب الآباء، وينعش الأبناء بالفرحة والسرور بأن الكبار يسألون عنهم، مما يزيد من تفاعلهم العاطفى والنفسى والاجتماعى، كما نلاحظ عناية الأب بإلباس أطفاله الثياب الجميلة حتى يزدادوا جمالاً فوق جمال، وحسناً فوق حسن، وتساعده فى ذلك الأم، وذلك للتحدث بنعمة الله، وإدخال الفرحة والبهجة إلى قلوب الأطفال، ثم دعاء الكبار للأطفال فى كل لقاء يرونهم، وفى كل مجلس يجالسونهم، وفى كل مشاهدة فالدعاء لأطفال المسلمين مهمة كل مسلم .

الأساس العاطفى السابع : الرعاية الخاصة بالبنت واليتيم :

هذان النموذجان من الأطفال أشد حاجة من غيرهما إلى البناء العاطفى من رحمة ورأفة ورعاية؛ وذلك لما يتمتعان به من شعور بالضعف، وفقدان عناصر القوة؛ ولأنهما عند الناس أقلّ شأناً من غيرهما، وقد هضمت المجتمعاتُ الجاهلية حقوقهما قديمًا وحديثًا . وحيثما ابتعدت أمة من الأمم، أو مجتمع من المجتمعات، أو أسرة من الأسر عن منهج الله وشريعته، تطبيقاً وعملاً، كان الظلم والحيف لهذين الضعيفين البنت واليتيم ... والجاهلية هى الجاهلية تتكرر بمحاورها، وتتبدل بأثوابها، أما القديمة فقد رفعت لواء الظلم لهما جهاراً نهاراً، وأشهرته على الملأ جميعاً بلا حياء، ولا خجل، ولا مروءة، ولا شهامة .

وأما الحديثة فقد زينت ظلمهما ببعض المواد الدستورية المهترئة، وفتحت لهما باب الحرية فى التمتع بالرذيلة أيًّا كان نوعها، ودرجتها فى الفجور.

وهكذا ضاع هذان الصنفان الضعيفان فى مثل هذه المجتمعات والأسر، وبقى الإسلام وحده فى الميدان المنقذ الوحيد لهما، يدافع عنهما، ويهاجم كل من يشير إليهما بأى ظلم أو حيف، حتى إذا ما وقع نوع من الظلم هدّد، وتوعد، واستنهض النفوس المؤمنة، واستجاشها، فأبكاها حتى يرتفع الظلم، ويحق العدل، ويكبو الحيف، وترتفع المساواة، ويزهق الباطل، ويثبت الحق .

وما هذا الحشد الهائل من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية بشأن هذين الطفلين الضعيفين، والذى سيأتى ذكره الآن، إلا دليلاً على ما ذكرناه، وبيانًا شافيًا على ما قدمناه؛ لأن الله تعالى خالق البشرية عالم بظلمها عندما لا تتقيد بشرعه، وأن القوى فيها يأكل الضعيف .

لهذا جاء التنبيه النبوى بشأن هذين الضعيفين قوله ﷺ :«إنى أُحرِّجُ عليكم حق الضعيفين : اليتيم والمرأة»[1] .رواه الحاكم والبيهقى فى«الشعب» عن أبى هريرة، ورواه ابن ماجه، والإمام أحمد، وابن حبان فى صحيحه .

وبقى أن نسأل : ما هى القواعد، والضوابط التى نحن مخاطبون بتطبيقها لإنصاف هذين الضعيفين؟

أولاً : رعاية تربية البنت[2] :

«أهم الوسائل فى إصلاح المنزل : ترقية تعليم المرأة عندنا، وتزويدها فى

(١) -حسن . انظر : صحيح الجامع رقم (٢٤٤٧) . ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب العيال (٢/ ٦٦٨) بلفظ: « اللهم إنى أحرج...» .

(٢) فى لغة العرب : ما دامت المرأة صغيرة فهى طفلة، فإذا تحركت فهى وليدة، فإذا بدأ بلوغها فهى كاعب، فإذا بلغت فهى ناهد، فإذا كبرت فهى مُعصر، ثم آنس، فإذا ارتفعت عن هذا فهى ناعس، فإذا جاوزت الأربعين فهى مُسلف، فإذا كانت بين الشباب والتعجيز فهى نصف، فإذا مسها الكبر فهى كهلة، ثم شهلة، فإذا عجزت فهى شهربة فإذا ضعفت فهى حيزبون، فإذا انحنى عودها وتكسرت أسنانها فهى قلعم، ثم لطلط. عن مجلة (المسلم) المصرية، العدد الأول، المحرم للسنة الثانية والأربعين ١٤١٨هـ .

المدارس بالقدر الوافر من الدين، والخلق، وإفساح المجال فى مناهج دراسة البنات للبحوث البيتية، وتراجم فضليات النساء اللاتى كن مضرب المثل فى الخلق الفاضل منهن، كنسيبة بنت كعب، وأسماء بنت أبى بكر، وصفية بنت عبد المطلب، وخولة بنت الأزور، وسكينة بنت الحسين، وغيرهن كثير، ولأن :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

أما أن تستمر مناهج البنات عندنا كما هى عليه الآن فتعنى بالكمالى والضار، وتترك الضرورى والنافع؛ فهذا مما لا يبشر بحياة طيبة للنشء الإسلامى.

تدرس البنات فى مدارسنا الموسيقا، واللغة الأجنبية، والهندسة الفراغية،والقانون الآن، ثم هى لا تعلم شيئاً عن تربية الأطفال، ولا تدبير الصحة، ولا علم النفس، ولا الدين، والخلق، ولا تدبير المنزل، فأى منهج هذا؟ وإلى أى غاية يوصل؟!

من لى بتربية البنات فإنها فى الشرق علّة ذلك الإخفاق

والأم إذا صلحت فانتظر من ابنها أن يكون رجلاً بكل معنى الكلمة، وأنت إذا استقرأت تاريخ العلماء، وجدت أن السر فى عظمة الكثيرين منهم ما بثته الأم من المبادئ الصالحة القويمة بحكم اللبان والتلقين، وما كان على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ فى حبه للحق، وغَيرته عليه، ومناصرته للرسول ﷺ ولامعاوية فى حلمه ودهائه، ولا عبد الله بن الزبير فى شجاعته، ولا الزبير نفسه فى ذلك، إلا سرًّا من أسرار فاطمة بنت أسد، وصفية بنت عبد المطلب، وأسماء بنت أبى بكر، وهند بنت عتبة .

ولئن كان الولدُ سرَّ أبيه، فكل إناء بالذى فيه ينضح، وحرى بمن كان يسمع فى مهده لأول عهده بالحياة ترنيمة أمه وهى تحثّه على الشجاعة، والأخلاق الفاضلة، أن يكون سيداً تتفجر الحكمة من جنبيه، وتنطوى السيادة فى برديه، كما كان عبد الله

ابن العباس بتأثير أمه : أم الفضل بنت الحارث الهلالية .

وحرى بمن تطرق سمعه لأول مرة تلك الأغانى الخليعة، والترنيمات الغثة؛ التى يداعب بها أمهات هذا العصر أبناءهن أن ينشأ ماجناً خليعاً، فاتر الهمة، ضعيف النفس .

الأم أستاذة العالم، والمرأة التى تهز المهد بيمينها تهز العالم بشمالها، فلأجل أن نصلح المنزل، يجب أن نصلح الأم التى هى روحه وقوامه» [1] .

وبعد هذا التمهيد بقى أن نعلم ما هى القواعد الأساسية فى تربية البنت؟ هناك ثلاث قواعد :

القاعدة الأولى : النهى عن كراهة البنت :

صحح القرآن أولاً النظرة، والتصور عن البنات، والتى كانت ذائعة الصيت فى المجتمعات الجاهلية، فوجّه العقول إلى تصحيح النظرة لها، وتعديل التصور عنها، وأنها مخلوقة، خلقها الله تعالى مكمّلة للرجل فى حياته، فلها حقوقها، وعليها واجباتها .

وبتصحيح التصور هيأ النفس البشرية من بداية الطريق إلى معاملتها بالحسنى، والقيام بالواجب نحوها، ولهذا جاءت الآية تصور الرؤوس العفنة، والنفوس المريضة لتعالجها، الأمر الذى أدى إلى انقلاب جديد فى الحياة البشرية النسائية، وبداية عصر النور لها . ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ ﴾ [النحل] .

ثم هز النفس البشرية وسألها، وسأل ضميرها، لتستيقظ من جهلها : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝ ﴾ [التكوير] .

---

(١) رسالة : أنجع الوسائل .

وأما رسول الله ﷺ فقال : «إن الله كره لكم ثلاثا : عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنع وهات»[1].

وروى البخارى[2] عن ابن عمر: أن رجلا كان عنده بنات، فتمنى موتهن، فغضب ابن عمر، فقال : أنت ترزقهن؟! وهذا خطاب نبوى إلى الوالدين فى تصحيح التصور عن البنات، وعدم الكراهية لهن، والمؤانسة لهن: روى الإمام أحمد، والطبرانى عن عقبة بن عامر قال : قال رسول اللهﷺ : «لا تكرهوا البنات، فإنهن المؤنسات الغاليات»[3].

ولابد أن نعلم أن النساء هم أكثر الناس فى الجنة، وأكثر الناس فى النار، حيث ورد فى الصحيح :

عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يتمخطون فيها، ولا يتغوطون فيها، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم من ألُوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم، ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، ويسبحون الله بكرة وعشية» . متفق عليه، رواه الترمذى .

وقد ورد فى الصحيح : «يامعشر النساء، اتقوا الله فإنى رأيتكن أكثر أهل النار، تكثرن الشكاة، وتكفرن العشير» .

قال الزين العراقى فى طرح التثريب فى شرح التقريب (٨/ ٢٧٠) : «والجمع بينهما أنهن أكثر أهل الجنة، وأكثر أهل النار لكثرتهن، قال القاضى عياض ـ رحمه

(١) رواه الطبرانى، ورجاله رجال الصحيح عن معقل بن يسار، قاله الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٤٧).
(٢) الأدب المفرد (١/ ١٥٨) .
(٣) قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٥٦) : وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات .

الله: يخرج من مجموع هذا أن النساء أكثر ولد آدم، قال: وهذا كله فى الآدميات، وإلا فقد جاء أن للواحد من أهل الجنة من الحور العدد الكثير قلت (أى الزين العراقى): وقد تقدم من عند الزبيدى من حديث أبى سعيد: «إن أدنى أهل الجنة، الذى له اثنتان وسبعون زوجة» ا. هـ.

وبهذا يتم تصحيح كثير من أفكار الناس بالاكتفاء بالحديث النبوى: «إنكن أكثر أهل النار» والتشاؤم من جنس النساء، أو التصور أنهن وراء كل شر «مثل الروسان» أو فتش عن وراء كل جريمة تجد امرأة!!

وأما العرب فتقول عن المرأة: فى المرأة عمق البحر، واضطراب الأمواج، وحرارة الشمس، وقطر الندى، وتقلب الرياح، ولون الأزهار، وطعم العسل، ووهج الذهب، ونفرة الغزال، وخيلاء الطاووس، ومكر الثعلب، ولغو الببغاء.

فسبحان من جعلها لغز الحياة، وأودعها من الأسرار ما لا يعرفه سواه[1].

إن القرآن والسنة النبوية صححا مفهوم المرأة للناس كافة، وأنها مخلوقة خلقها الله ـ تعالى ـ لها واجبات وعليها حقوق، وأنها ليست السبب فى خروج آدم من الجنة بدليل: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾ [البقرة] فأكلا من الشجرة ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [الأعراف] ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف] فالآيات كلها تدل على اشتراكهما سويا، وأن الشيطان وسوس لهما، وأزلهما، وأقسم عليهما، كلاهما معا.

وبذلك نفى القرآن ـ ما تدعيه النصارى ـ من كون حواء سببًا فى خروج من الجنة.

لقد تولى الله تعالى فى كتابه (القرآن)، والنبى ﷺ فى (سنته) تصحيح المفهوم عن المرأة، وما زال المؤمنون يخوضون معركة التصحيح مع الجاهلية الحديثة (جاهلية

(١) مجلة (المسلم) المصرية، العدد الأول للسنة الثانية والأربعين ١٤١٨هـ.

التشريع) فى تثبيت أركان الفضيلة، ومحاربة الفاحشة وأسبابها، والتى تريد أن تستغل وضع المرأة، ومفهوم النصارى عن المرأة حتى تبقى ذليلة مهينة فى يد الرجل الغربى، مهما تنوعت الأسماء والشعارات البراقة نحو : حرية المرأة، ومكانة المرأة، ومساواة المرأة بالرجل، فكل هذه الشعارات، إنما تستخدمها عقول الرجال العفنة فى استدراج المرأة، لتصبح سلعة طيعة بأيديهم .

وأما الرجل والمرأة المسلمان، فكل منهما يقف ممتثلا لقول الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات] .

وبذلك كان الإسلام ـ ولا يزال إلى قيام الساعة ـ هو المحرر الأول والوحيد للرجل والمرأة على السواء، من كل خرافات الجاهلية، وأوهام الشياطين .

وفى ختام هذه القاعدة نعيش مع تحليلات ابن القيم ـ رحمه الله ـ ليقدم لنا التفسير، والشرح، والبيان عن قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى] .

قال ـ رحمه الله[1]: فقسم الله سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام، اشتمل عليها الوجود، وأخبر أن ما قدره بينهما من الولد، فقد وهبهما إياه، وكفى بالعبد تعرضا لمقته أن يتسخط ما وهبه . وبدأ سبحانه بذكر الإناث، فقيل : جبرا لهن لأجل استثقال الوالدين لمكانهن .

وقيل ـ وهو أحسن: إنما قدمهن لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء الأبوان، فإن الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالبا، وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما

(١) أحكام المولود (ص٢٠) .

يشاء، فبدأ بذكر الصنف الذى يشاء، ولا يريده الأبوان .

وعندى وجه آخر ـ والكلام لابن القيم : وهو أنه سبحانه قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يئدونهن، أى : هذا النوع المؤخر عندكم مقدم عندى فى الذكر، وتأمل كيف نكر الله سبحانه الإناث، وعرف الذكور، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم، وجبر نقص التأخير بالتعريف، فإن التعريف تنويه .

كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم، ثم لما ذكر الضعيفين معا، قدم الذكور، إعطاء لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير، والله أعلم بما أراد من ذلك.

ويتابع ابن القيم قوله : وقد قال الله ـ تعالى ـ فى حق النساء : ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [النساء] .

وهكذا البنات قد يكون للعبد فيهن خير فى الدنيا والآخرة، ويكفى فى قبح كراهتهن أن يكره ما رضيه الله، وأعطاه عبده .

وقال صالح بن أحمد : كان أبى، إذا ولد له ابنة يقول : الأنبياء كانوا آباء بنات، ويقول : قد جاء فى البنات ما قد علمت.

وقال يعقوب بن بختان : ولد لى سبع بنات، فكنت كلما ولد لى ابنة، دخلت على أحمد بن حنبل، فيقول لى : يا أبا يوسف! الأنبياء آباء بنات، فكان يذهب قوله همى .

قال الفاكهانى معلقا على حديث حمل الرسول ﷺ لبنت بنته ـ أمامة بنت زينب ـ فى الصلاة :

«وكان السر فى حمله أمامة فى الصلاة، دفعا لما كانت العرب تألفه من كراهة البنات! وحملهن، فخالفهم فى ذلك حتى فى الصلاة، للمبالغة فى ردعهن، والبيان فى

الفعل، قد يكون أقوى من القول . اهـ »[1].

فإذا القاعدة الأولى تتلخص : فى إزالة التصور الفاسد عن البنات، وعدم الكراهية لهن،وإحلال الحب لما أحبه الله تعالى، ووهبه للوالدين، وأن الخير فيما يختاره الله للعبد، لا فيما يختاره العبد لنفسه.

وصدق الشاعر إذ يقول :

أحب البنات، وحب البنات فرض على كل نفس كريمه
فإن (شعيبا) لأجل البنات أخدمه الله موسى كليمه[2]

القاعدة الثانية : المساواة بين الذكر والأنثى، وعدم المفاضلة بينهما :

حتى إذا رزق الله الوالدين أبناءً من الذكور والإناث، جاء التصور الإسلامى يعلمهما طريقة التعامل معهما، وذلك بالمساواة بينهما، حتى جعله الرسول ﷺ أحد أسباب الدخول إلى الجنة، وذلك فى عدم إيثار الصبى على البنت ... وإنما هم فى الحب سواء، وفى العطاء سواء، وفى تقديم الهدايا والمال سواء، وفى التثقيف وطلب العلم سواء، وفى المعاملة سواء، حتى فى القبلة سواء بسواء .

روى أبو داود عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «من كانت له أنثى، فلم يئدها، ولم يهنها، ولم يؤثر ولده ـ يعنى : الذكور عليها ـ أدخله الله الجنة».

وروى البزار عن أنس ﷺ أن رجلا كان عند النبى ﷺ فجاء ابن له فقبله، وأجلسه على فخذه، وجاءت بنت له فأجلسها بين يديه، فقال رسول الله ﷺ : «ألا سويت بينهم»[3].

---

(١) انظر : فتح البارى للحافظ ابن حجر (١/ ٤٦٩) .
(٢) مجلة (المسلم) المصرية، العدد الأول للسنة الثانية والأربعين، المحرم ١٤١٨هـ .
(٣) قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٥٦) : رواه البزار، فقال : حدثنا بعض أصحابنا، ولم يسمه، وبقية رجاله ثقات .

بهذه الدقة النبوية فى التعامل مع الصبى والبنت، مما لا تعرفه جميع المجتمعات البشرية، ولا تعلمه الكتب الغربية فى تربية الأطفال، ولا يخطر على عقول من يسمون أنفسهم: علماء النفس التربويين.

القاعدة الثالثة : أجر التربية، والإحسان، والصبر على البنات، وتزويجهن :

لم تقف الشريعة فى مواجهة النفس البشرية لتعاكسها، وإنما لتهذبها، ففى مقابل تربية البنات كان الأجر الكبير، وفى مقابل الصبر عليهن الثواب العظيم، وذلك ليسكن من ألم الوالدين، ويطيب من خاطرهما، ويشعرهما بأهمية عمل هما، ودورهما فى هذه الرعاية، والعناية بهن .

فقد روى مسلم عن أنس ﷺ عن النبى ﷺ قال : «من عال ـ أى : قام عليهما فى المؤونة والتربية ـ جاريتين ـ أى : بنتين ـ حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين» وضم أصابعه .

روى البخارى ومسلم والترمذى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : دخلت على امرأة ومعها ابنتان لها، تسأل، فلم تجد عندى شيئا غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت، فخرجت، فدخل النبى ﷺ علينا، فأخبرته، فقال : «من ابتلى من هذه البنات بشىء، فأحسن إليهن كن له سترا من النار» .

وفى رواية لمسلم قال : «إن الله قد أوجب لها الجنة، أو أعتقها بها من النار» .

وروى أبو داود والترمذى عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «من كان له ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، أو ابنتان، أو أختان، فأحسن صحبتهن، واتقى الله فيهن، فله الجنة» .

وفى رواية أبى داود قال : «من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، أو أختين أو

بنتين، فأدبهن، وأحسن إليهن، وزوجهن، فله الجنة» .

وفى رواية : «من كان له ثلاث بنات أو أخوات، أو بنتان أو أختان، فأحسن صحبتهن، وصبر عليهن، واتقى الله فيهن، دخل الجنة» .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : «من كان له ثلاث بنات، فصبر على لأوائهن، وعلى ضرائهن دخل الجنة» . وفى رواية : فقال رجل : يارسول الله، واثنتين؟ قال : «واثنتين» قال : يارسول الله، وواحدة؟ قال : «وواحدة» .

وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر الجهنى يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من كانت له ثلاث بنات، فصبر عليهن، فأطعمهن، وسقاهن، وكساهن من جدته، كن له حجابا من النار يوم القيامة» [1] .

ولا بأس من تزيين البنت بالحلى؛ ليرغب فيها خطابها، ولتقع فى أعين النساء موقعا حسنا :

فقد روى ابن أبى الدنيا ـ بإسناد رجاله رجال الصحيح ـ فى كتاب العيال (١/ ٣٩٥) أن رسول الله ﷺ قال لأسامة بن زيد عندما مرض : «لو كنت جارية لحليناك حتى يرغب فيك» .

وقد تقدم أهمية دور تربية البنت لأنها أم المستقبل، ومؤسسة المجتمع فى الغد القريب، وصانعة الأبطال، ومهزة التاريخ فى القريب العاجل، فهل لك أن تساهم بإصلاح المجتمع؟ إنه تربية ابنتك وأختك .

القاعدة الرابعة : تعليم البنت صنعة المغزل، أو أى صنعة بيتية :

إن تعليم البنت الأمور المنزلية فى بيتها، يساهم فى بناء اقتصاد المنزل، وبالتالى

(١) صحيح . انظر : صحيح الجامع رقم(٦٤٨٨) ورواه ابن ماجه .

بناء اقتصاد المجتمع والدولة، فالترشيد فى الإنفاق يبدأ من المنزل، ومن أوليات الترشيد هو العلم والمعرفة بما يخص البيت من أمور وأعمال، فالرجل الذى يكد ويتعب وتهدر زوجته ما يأتى به، إنما تهدر اقتصاد الدولة، وبالتالى لابد من إنشاء وتكوين الفكر الاقتصادى لدى البنت أم المستقبل .

ومن **أساليب ذلك** : أن تتعود بذل الجهد بأجر فى عمل مثمر داخل بيتها، فتشغل فراغها بشىء نافع، وتبتعد عن خواطر ووساوس الشيطان الناتج من الفراغ، ومهما كان الأب غنيًّا، والأسرة غنية، لابد من إنشاء وتكوين بناتهن، وإشغال وقتهن بعمل مثمر مفيد على الأسرة، فالغنى لا يدوم، والمهارات الفنية العملية تبقى، ومن تلك المهارات تعلم البنت لصنعة المغزل، والذى كان - وما يزال فى كثير من البلاد ـ عائدا جيدا بالنفع للأسرة . ويقاس عليه : كل عمل مثمر مفيد تتعلمه البنت بهدف تكوين أسرة المستقبل، تكوينا محكما اقتصاديا تنفع به أسرتها، وإنما هو مطلب إسلامى .

فعن عمرو بن شرحبيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [المؤمنون] قال : كان عيسى يأكل من غزل أمه .

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : المغزل فى يد المرأة، مثل الرمح فى يد الغازى .

وعن على ـ كرم الله وجهه ـ قال : إن المغزل من طيبات الرزق .

وعن عمر ﷺ قال : علموا أولادكم العوم (أى : السباحة) والرماية، ونعم لهو المرأة : المغزل .

وعن مجاهد ـ رفعه للنبى ﷺ ـ قال : «نعم لهو المرأة المغزل» وسند رجاله رجال الصحيح ما عدا حسين بن زيد فهو لين[1] .

(١)انظر : كتاب العيال (٢/ ٥٨٢).

إن الإسلام بمفهومه العام يكره البطالة للكبير والصغير، والرجل والمرأة، والذكر والأنثى، ويحض على العمل المثمر، وإشغال الوقت بما ينفع الفرد والأسرة والمجتمع. ولكن ضمن نظام الشريعة، وقانون الكتاب والسنة، لا وفق مبادئ أهل الأرض التى لا تعرف الفضيلة وأسبابها، والتى لا يهمها تحطيم الأسرة والفرد والمجتمع، وإنما يهمها الإنتاج بأية طريقة كانت .

ثانيا : تربية اليتيم واليتيمة :

يعرف النبى ﷺ مرحلة اليتم بأنها دون سن الاحتلام، فإذا حصل الاحتلام، فعند ذلك انتفت عن الطفل صفة اليتم .

روى أبو حنيفة فى مسنده عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يتم بعد حلم»[1].

وروى أبو داود عن على ﷺ قال : حفظت عن رسول الله ﷺ : «لايتم بعد احتلام»[2].

يقول الشيخ محمود شلتوت ـ رحمه الله ـ شيخ الأزهر سابقا :

«واليتيم طفل من بين الأطفال فقد أباه، والعائل الذى يرعاه، فقد القلب الذى يحنو عليه، والروح الذى كان يحوطه ويرعاه، فتقوى أعصابه، وتنمو جوارحه، وينشرح صدره، وتبتسم له الحياة، فقد بموت أبيه كل ذلك، وأسلمته المقادير إلى الكآبة وتشتت البال والحرمان، فما أحوجه إلى عناية من الرؤوف الرحيم، تنتشله من تلك الوهدة، وتجعل له متنفسا يسرى به عن نفسه، ما أحوجه إلى تشريع حكيم ووصية كريمة من رب رحيم تحفظ عليه نفسه، وتحفظ له ماله، وتعده رجلا عاملا فى الحياة، ليس كلاً على غيره، ولا عبئا على أمته، ولا عنصر شر ينفث سمومه فى

(١) انظر : عقود الجواهر المنيفة للزبيدى (٢/ ٩٤) .
(٢) الحديث حسن بشواهده . قاله الأرناؤوط فى جامع الأصول(١١/ ٦٤٢) .

أمثاله الأطفال»[1].

«لهذا كله عنى الإسلام كتابا وسنة بأمر اليتيم، والحث على تربيته، والمحافظة على نفسه وماله، وقد ظهرت عناية القرآن الكريم بشأن اليتيم منذ أن نزل إلى أن أكمل الله دينه، وأتم على المؤمنين تشريعه....إذ جعل الله ازدراء اليتيم وإهمال أمره، آية من آيات التكذيب بيوم الدين: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ [الماعون] وإذ يجعل الوصية به، إحدى الوصايا العشر التى لم تنسخ فى ملة من الملل، وينظمها مع الإيمان بالله فى سلك واحد: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]. إلى أن يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وتتلخص تربية اليتيم فى ثلاث قواعد:

القاعدة الأولى: أجر رعاية اليتيم، وتربيته، ومراضاته:

سنعيش مع طائفة من الأحاديث النبوية التى تستجيش النفوس، وتدعوها إلى الاهتمام برعاية اليتيم، الذى فقد أباه قبل سن الاحتلام، وذلك لقوله ﷺ فيما رواه أبو داود: «لا يتم بعد الاحتلام»، فهذا يستحق القيام برعايته، لأنه فقد أحد الأركان الأساسية للتلقى التربوى.

فقد أخرج البخارى عن سهل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل ـ القائم بأمور ـ اليتيم فى الجنة هكذا» أشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما[2].

وروى البيهقى عن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أحب بيوتكم إلى الله بيت فيه يتيم مكرم»[3].

(١) انظر كتاب: من توجيهات الإسلام للإمام الأكبر محمود شلتوت (ص١٦٠) طبع دار الشروق.
(٢) صحيح ورواه أحمد وأبو داود والترمذى.
(٣) ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب العيال (٢/ ٨٠٩) بلفظ: «يكرم».

وروى ابن ماجه عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه، أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين يشير بإصبعيه» .

ويضع ﷺ قاعدة إلى قساة القلوب، والتى لم تعد تشعر بنعمة الله عليها دواء، وعلاجا نافعا، يهزها هزا .

روى الطبرانى عن أبى الدرداء ﷺ أنه أتى النبى ﷺ رجل يشكو إليه قسوة قلبه، فقال له : «أتحب أن يلين قلبك، وتدرك حاجتك؟! ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه يلن قلبك، وتدرك حاجتك»[1].

وإن رسول الله ﷺ ليواسى الأطفال الذين استشهد آباؤهم، فأصبحوا أيتاما :

فعن أسماء بنت عميس قالت: لما أصيب جعفر وأصحابه، دخلت على رسول الله ﷺ، وقد دبغت أربعين منيئة، وعجنت عجينتين، وغسلت بنى، ودهنتهم، ونظفتهم، فقال رسول الله ﷺ : «ائتينى ببنى جعفر» قالت : فأتيته بهم، فشمهم، وذرفت عيناه، فقلت : يارسول الله، بأبى أنت وأمى، ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شىء، قال : «نعم أصيبوا هذا اليوم» . رواه أحمد (٦/ ٣٧٠) .

ومن ذلك أيضا ما رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه (١٢/ ١٠٣) عن عامر قال : أخبرت أن النبى ﷺ أرسل إلى امرأة جعفر (أى بعد استشهاده فى مؤتة) «أن ابعثى إلى بنى جعفر» قال : فأتى بهم، فقال ﷺ : « اللهم إن جعفرًا قد قدم إليك إلى أحسن الثواب، فاخلفه فى ذريته بخير ما خلفت عبدًا من عبادك الصالحين» .

وروى البخارى عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أنه كان إذا سلم على ابن جعفر قال : السلام عليك يا بن ذى الجناحين .

---

(١)صحيح، انظر : صحيح الجامع، رقم (٨٠) .

حيث إن رسول الله ﷺ أخبر عن جعفر بعد استشهاده فى غزوة مؤتة أنه يطير فى الجنة بجناحين، فكان ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ يستقبل الطفل اليتيم بذلك النداء، لإظهار مكانة والده ومكانة الابن فى نفوس الكبار، فلا يشعر اليتيم بالغربة عن المجتمع، ولا يجتمع الحقد والكيد والانتقام فى نفسه، وإنما ليحس ويشعر بتقدير المجتمع له ولوالده، مما يجعل نفسه راضية بقضاء الله ـ تعالى، بوفاة والده .

وأما ملاطفة اليتيم والمسارعة إلى إرضائه، وأن فى ذلك الأجر الكبير فى الجنة وخاصة عندما تقوم شبهة حق فى صالحه فإليك التوجيه النبوى :

روى مسلم عن جابر بن سمرة قال: صلى رسول الله ﷺ على ابن الدحداح، ثم أتى بفرس عرى، فعقله رجل، فركبه فجعل يتقرص به، ونحن نتبعه، نسعى خلفه، قال: فقال رجل من القوم: إن النبى ﷺ قال : «كم من عذق معلق أو مدلى فى الجنة لابن 'الدحداح» أو قال شعبة : «لأبى الدحداح» قال النووى فى شرح صحيح مسلم (٧/ ٣٣) : «قالوا: سببه أن يتيما خاصم أبا لبابة فى نخلة، فبكى الغلام، فقال النبى ﷺ له : «أعطه إياها، ولك بها عذق فى الجنة» فقال: لا، فسمع بذلك أبو الدحداح، فاشتراها من أبى لبابة بحديقة له، ثم قال للنبى ﷺ : ألى بها عذق إن أعطيتها اليتيم؟ قال : «نعم» فقال النبى ﷺ : «كم من عذق معلق فى الجنة لأبى الدحداح» .

وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب العيال (٢/ ٨٠٦) عن أبى مالك أنه سمع النبىﷺ يقول : «من ضم يتيما من بنى المسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه، وجبت له الجنة البتة» .

قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨/ ١٦١) : رواه أبو يعلى والسياق له، وأحمد باختصار والطبرانى، وهو حسن الإسناد[1].

(١) انظر: تحقيق الحديث لمحقق كتاب العيال الدكتور نجم عبد الرحمن خلف .

وعن أبى أسامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : «من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا لله- عز وجل - كانت له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات، ومن أحسن إلى يتيم عنده كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين» وقرن بين أصبعيه . رواه ابن أبى الدنيا بسند ضعيف، لكن له متابع من أحمد فى المسند والطبرانى فى المعجم الكبير[1].

وعن إسماعيل بن أمية قال : سمعت أبى، عن النبى ﷺ : «إن الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله، القائم ليله، الصائم نهاره، وكافل اليتيم له أو لغيره، إذا اتقى، فأنا وهو فى الجنة كهاتين، أو كهذه من هذه» وأشار إلى السبابة والوسطى. رواه ابن أبى الدنيا بإسناد حسن، وهو مرسل[2].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : «من ضم يتيما من بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله ـ عز وجل ـ أوجب الله له الجنة، إلا أن يعمل بذنب لا يغفر». رواه ابن أبى الدنيا بسند ضعيف، ورواه الترمذى[3].

وعن بريدة الأسلمى قال: قال رسول الله ﷺ : «من مسح رأس يتيم رحمة له، وتحننًا عليه كتب الله تبارك وتعالى بكل شعرة وقفت عليها يده حسنة» . رواه ابن أبى الدنيا بسند ضعيف[4].

القاعدة الثانية : حفظ مال اليتيم والتجارة بماله :

عنى القرآن بتنظيم الشؤون المالية فى المجتمع المسلم : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ [البقرة] وأقام أساسا قويا للبيع وهو التراضى، فكل ما يفضى إلى الجهالة والمنازعة فهو غير مشروع : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء] .

فالتراضى أساس التعاملات المالية، ومن بين تلك الشؤون المالية الهامة فى حياة

(١ـ ٤)تحقيق الحديث لمحقق كتاب العيال الدكتور نجم عبد الرحمن خلف .

المجتمع هو الإرث، فنظمته الآيات القرآنية غاية التنظيم،ولم يترك الإرث للأهواء كما كان فى الجاهلية القديمة والحديثة، حتى كانت عملية الإرث وتنظيمه وصية منه تعالى، لم ترد فى القرآن إلا قليلا :

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ [النساء] وفى أى شىء هذه الوصية الهامة؟ إنها فى الشؤون المالية فى توزيع الإرث ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [النساء].

وقد مر معنا أن المولود إذا ولد وصاح صيحة واحدة تنبئ عن نزوله حيا ثم مات، فإنه يستحق من الإرث، لذلك لا يوزع الإرث حتى تضع الحامل.

وفى توزيع الإرث للأخ مثل نصيب أختيه، عدالة إلهية وأية عدالة! فبجانب ذلك التوزيع، أوجب الشرع على الأخ الإنفاق على أخواته من ماله وليس من مالهن، وإن كن أغنياء، فالقاعدة الغرم بالغنم، فكما أن الأخ يأخذ ضعف ما تأخذ أخته، فإنه يجب عليه الإنفاق عليها، فمن جانب أعطاه، ومن جانب أخذ منه، حيثما يتطلب الموقف إعطاءً أو أخذًا، وذلك صيانة للأخت من مشقة العمل خارج البيت واستغلال الرجال لها، وقد تتعرض لمواقف تتساهل فيها عن الطهر والنظافة، فحيثما أوجب الشرع الحنيف على البنت والأخت والزوجة القعود فى البيت، وتدبير شأنه، أوجب على الأب والأخ والزوج الإنفاق.

هذا وإن الأنثى تأخذ فى حالات الإرث جميعها أكثر من الذكر إلا فى موطن واحد أن يشاركها أخوها فى الإرث. وفى ذلك أكبر دليل على رعاية الإسلام للأنثى تربية ومالاً واقتصاداً.

ولنلق الضوء على الأحاديث النبوية، وبعض المواقف بين الصحابة بهذا الخصوص :

عن سعيد بن المسيب قال : اليتيم إذا بكى اهتز له العرش، فيقول الله ـ عز وجل : من أبكى اليتيم الذى غيبت أباه؟ قالوا :أنت العليم الحكيم، قال : يا ملائكتى!

من سكته برضاه، أعطيته من الجنة حتى رضاه . رواه ابن أبى الدنيا[1].

وعن أبى الدرداء ﷺ قال : «اتقوا دمعة اليتيم، ودعوة المظلوم، فإنهما يسيران بالليل، والناس نيام» . رواه ابن أبى الدنيا[2].

وعن أبى شريح خويلد بن عمرو الخزاعى ﷺ قال : قال النبى ﷺ : «اللهم إنى أحرج حق الضعيفين : اليتيم والمرأة» . حديث حسن رواه النسائى .

قال النووى ـ رحمه الله : معنى أحرج : ألحق الحرج، وهو الإثم لمن ضيع حقهما، وأحذر من ذلك تحذيرا بليغا، وأزجر عنه زجرا أكيدا .

وأخرج مسلم والبخارى والترمذى والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت: إن رجلا كانت له يتيمة فنكحها، وكان له عذق نخل، فكانت شريكته فيه وماله، فكان يمسكه عليها ولم يكن له من نفسه شىء، فنزلت : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ۝﴾ [النساء] .

وفى رواية أن عروة سألها عن قول الله تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ إلى ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فقالت: يا بن أختى، هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها، فيرغب فى جمالها ومالها، ويريدون أن ينتقص صداقها، فنهوا عن نكاحهن، إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق، وأمر بنكاح من سواهن . قالت عائشة : فاستفتى الناس رسول الله ﷺ بعد ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ إلى ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾[النساء]، فبين الله لهم أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال ومال، رغبوا فى نكاحها، ولم يلحقوها بسنتها فى كمال الصداق، وإذا كانت مرغوبا عنها فى قلة المال والجمال، تركوها، والتمسوا

(١ـ ٢) كتاب العيال باب فى اليتامى، تحقيق الدكتور نجم خلف (٢/ ٨٠٢) .

غيرها من النساء . قالت : فكما يتركونها حيث يرغبن عنها، فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها، إلا أن يقسطوا لها، ويعطوها حقها الأوفى من الصداق .

وروى البخارى ومسلم عنها أيضا فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء] إنما أنزلت فى ولى اليتيم إذا كان فقيرا أنه يأكل من المال، فكان عليه قيامه عليه بمعروف .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما أنزل الله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ [الإسراء] و: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء] قال: انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشىء من طعامه وشرابه، فيحبس حتى يأكله، أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾[البقرة] فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم . رواه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٣٠٣) وقال : صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبى .

أما التجارة بمال اليتيم، فهذا التوجيه النبوى :

أخرج مالك فى الموطأ عن مالك بن أنس ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ قال : اتجروا فى أموال اليتامى، لا تأكلها الصدقة .

وروى الترمذى عن عمرو بن شعيب ـ رحمه الله ـ عن أبيه، عن جده : أن النبى ﷺ خطب الناس فقال : «ألا من ولى يتيما له مال فليتجر فيه، ولا يتركه حتى تأكله الصدقة »[1].

(١) ضعيف، انظر : ضعيف الجامع رقم (٢١٧٨)

يقول الشيخ الأكبر محمود شلتوت ـ رحمه الله ـ شيخ الأزهر سابقا[1].

«وقد تأثرت نفوس القوم بهذه الوصايا المكية التى جاءت فى شأن اليتيم، وصاروا من أمره فى حرج وحيرة:

- أيتركون القيام عليه، فيفسد أمره، ويختل شأنه؟

- أم يقومون عليه، ويعزلونه عن أبنائهم: فى مأكله، ومشربه، فيشعر بالذلة والمسكنة؟

- أم يخالطون: فيعرضون أنفسهم لأكل شىء من ماله؟

- أم ماذا يفعلون؟

التمست نفوسهم ما ينقذهم من هذه الحيرة، ويخفف عنهم عبء هذه المسؤولية التى ثقل بها كاهلهم، وعندئذ نزل قوله تعالى:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، فأفهمهم أن المخالطة مع العدل والإصلاح من مقتضى ما بينهم من الأخوة الإنسانية والدينية والرحم.

ثم جاءت سورة النساء وبرزت فيها عناية خاصة باليتيم فى شأنه كله، ومهدت لهذه العناية، بطلب تقوى الله والأرحام، وبيان أن الناس جميعا خلقوا من نفس واحدة، فاليتيم حتى لو كان من غير أسرتكم، فهو أخوكم، ورحمكم، فقوموا له بحق الأخوة وحق الرحم، واحفظوا أمواله، وهذبوا نفسه، واحذروا اغتيالها وأكلها، واحذروا إهماله وإلقاء حبله على غاربه، وفى ذلك يقول الله ـ تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [النساء] ويقول: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ

(١) انظر: من توجيهات الإسلام للشيخ شلتوت ـ رحمه الله (ص ١٦٢).

غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝﴾ [النساء].

القاعدة الثالثة: أجر الأم التى تربى أيتامها، ولا تتزوج:

روى أبو داود وأبو يعلى[1] عن عوف بن مالك عن النبى ﷺ قال: «أنا وامرأة سفعاء[2] الخدين، آمت[3] من زوجها فصبرت على ولدها، كهاتين فى الجنة». وزاد أبو داود: «ذات منصب وجمال، حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا، أو ماتوا»[4].

يقول الشيخ محمود شلتوت ـ رحمه الله ـ فى بيان هذا الحديث:

«هذه الأم التى مات عنها زوجها، وهى ذات منصب وجمال، وترك لها أيتاما، فتأيمت عليهم، وحبست نفسها على خدمتهم، حتى تغير لونها، وانطفأ جمالها، ونسيت وسائل الزينة، ومظاهر الجمال فى سبيل هيمنتها على الأيتام، وفى سبيل تربيتهم، والمحافظة عليهم»[5]، فاستحقت أن تكون مع الرسول ﷺ.

وهكذا وجدنا اهتمام رسول الله ﷺ بكل من الضعيفين البنت واليتيم، فوجه الأمة إلى زيادة الاهتمام بهما، والحرص عليهما، والإحسان إليهما، وأنها مكرمة أى مكرمة!

القاعدة الرابعة: معاملة اليتيم مثل معاملة الابن فى التربية والتعليم والتأديب:

كان من رعاية النبى ﷺ لليتيم أن يوجه الأمة لرعايته والحفاظ على ماله، والنظر فى مصالحه الدنيوية والأُخروية، وتهيئته جيدًا للمجتمع؛ ليكون عنصرا فاعلا مفيدا.

ولكن قد يشذ اليتيم فى بعض الأحيان، مما يحتاج إلى تأديبه، وإنزال العقوبة به،

---

(١) كما فى الأدب المفرد (١/ ٢٢٨).
(٢) السفعة: سواد مع لون آخر تغير وقد لونها لما تكابد من المشقة.
(٣) آمت: آمت المرأة من زوجها: إذا مات عنها زوجها، أو قتل، فأقامت لا تتزوج.
(٤) فى سنده النهاس بن قهم وهو ضعيف. انظر: جامع الأصول (١/ ٤١٤).
(٥) انظر: من توجيهات الإسلام (ص٦٣).

فإن تُرك بلا تأديب لربما يفسد حاله الآنى والمستقبلى، لذا فإن رسول الله ﷺ قد أذن فى تأديبه، ووضع قاعدة للتأديب، وذلك باعتبار اليتيم مثل منزلة الابن :

عن ابن حبان فى صحيحه (موارد الظمآن رقم : ٢٠٣٨) عن جابر ﷺ قال : قال رجل : يارسول الله، مم أضرب منه يتيمى؟ قال : «مما كنت ضاربا منه ولدك، غير واق مالك بماله، ولا متأثل من ماله مالا». ورواه ابن أبى شيبة فى مصنفه (٩/ ١٧) والبيهقى فى السنن الكبرى (٦/ ٢٨٥) .

وقد سار الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على ذلك، نقتطف جملة من تلك الآثار من كتاب (العيال) لابن أبى الدنيا[١]:

وعن قتادة قال : «كن لليتيم كالأب الرحيم، ورد المسكين برحمة ولين» رواه ابن أبى الدنيا[٢]:

وعن إبراهيم قال : ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى : ٩] قال : لا تحقره . رواه ابن أبى الدنيا[٣].

وعن عبد الرحمن بن أبزى قال : «قال داود لابنه: كن لليتيم كالأب الرحيم، واعلم أنك كما تزرع كذاك تحصد» . رواه ابن أبى الدنيا .

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال : لما قدم بولد محمد بن أبى بكر ضمتهم عائشة ـ رضى الله عنها ـ إليها، فلما شبا وقويا على أنفسهما، أرسلت إلى أخيها عبد الرحمن بن أبى بكر، وقالت : إنى أطلبك، قد وجدت فى نفسك من يولى عليك أمر ولد أخيك، ولم يكن ذاك بشىء تكرهه، إن يلى سلوك منهم، نظر قبيح، أمر الصبيان، وكن لهم كما كان حجية بن المضرب، فإنه غزا غزوة، وخلف ابن أخيه عند أخته، فرجع وقد عوَّلا وفسقا، فسألهما؟ فأريا، وقعدا مسعًا مسعًا، وقالا: كانت تقر

(١) انظر : كتاب العيال (٢/ ٨١٥) .
(٢، ٣) المصدر السابق .

فى هذا . فأرسل إلى عشيرته، فقال : أشهدكم : إن إبلى، وغنمى، ورقيقى لابن أخى، فغضبت امرأته، فضربت بينها وبينه حجابا، ثم جعلت تكحل مرة، وتسخب[1] مرة، قال : فأنشأ يقول :

لجنا ولجت هذه فى التغضب ... ولُطَّ الحجابُ دوننا والتَّنقُّب

وخَطَّتْ بعودى حفر عينها ... لتقبلنى وشدّ صاحب زينب

وكان اليتامى لا يَسَدُّ معونهم ... هدايا لهم فى كل قعب مثقب

فقلت لعبدينا أريحا عليهما ... فيجعل بيتى بيت آخر معزب

ورحمت بين مقدما دقل ... لهم وحولهم مسى ورب أحقب

أجارى به بما من لو أتيت بماله ... جرينا لانباى على كل مرحب

أفى والدى إن أدعه لعظمة يجبنى ... وأن أغضب إلى السيف يغضب

فقلت : خذوها دونكم إن عمكم ... هو اليوم أولى منكم بالتكسب

ومما زاد فى أهمية هذه الأبيات حفظ عائشة ـ رضى الله عنها ـ ثم توصيتها بحفظها وروايتها حيث تقول: تروا أبيات حجية بن المضرب وأنها خاصة على النبى» . رواه ابن ابى الدنيا[2].

وعن الليث بن سعد أن عمير بن أبى ناجية (ثقة عابد متوفى ٢٣٥هـ) حدثه، قال: أخذت يتيما من قريش، فانقلبت به إلى منزلى، وأطعمته، ودهنته، ووهبت له فلوسا، وقلت: اللهم أشرك أمى معى فيما صنعت بهذا اليتيم.

قال: ثم نمت، فرأيت أمى، أقبلت ملتبسة على أحسن ما كانت عليه، معها ذلك اليتيم، حتى وقفت، ثم قالت : أى بنى، لو رأيت ما صنع بى هذا الغلام منذ

(١) السّخاب : القلادة من رياحين ليس فيها لؤلؤ، ولا جوهر .
(٢) انظر : كتاب العيال لابن أبى الدنيا (٢/ ٨٢) وما بعد .

اليوم، قال الليث : تقول : أصبت به خيرا، للذى كان من عمير، ابنها اليتيم[1] .

وعن محمد بن سيرين قال : فرح اليتيم بالثوب الحسن تكسوه، وبالشيء تصنعه له، فانه أسرع لشبابه، فإن عاش رزقه، وإن مات كان أحق من أكل ماله . رواه ابن أبى الدنيا[2] .

وكان الفقيه ميمون بن مهران (ت١١٧هـ) رحمه الله يضرب يتيما له عنده واليتيم يقول : ألا ترحم هذا اليتيم؟! اتق الله فى هذا اليتيم! وميمونا يضرب، ويقول : اللهم! أصلح هذا اليتيم . رواه ابن أبى الدنيا.

وروى البخارى فى الأدب المفرد (١/ ٢٢٧) أن أسماء بن عبيد قال : قلت لابن سيرين : عندى يتيم، قال : اصنع به ما تصنع بولدك، اضربه ما تضرب ولدك .

وروى أيضا عن شميسة العتكية قالت : ذكر أدب اليتيم عند عائشة فقالت: إنى لأضرب اليتيم حتى ينبسط .

وإن مما خلده المسلمون وما يزالون : فكرة دار الأيتام حيث يجمع الأيتام الفقراء، الذين لا معيل لهم فينفق عليهم، فأوقف الأغنياء لهم من أموالهم لينفق عليهم، فتنشأ لهم المدارس الخاصة بهم، ويربون تربية خاصة، كما تنشأ الحرف اليدوية والمهارات المهنية، فمن لم يفلح فى طلب العلم، فيعلم ويتدرب على حرفة النجارة أو الصناعة . ويدخر له ما ينتج ويباع له فى السوق، وتجمع أمواله، حتى إذا بلغ الرشد فى تصرفاته المالية والمهنية استقل بنفسه، وأصبح عضوا فاعلا فى المجتمع .

وبذلك يساهم كل المجتمع المسلم فى تنشئة ورعاية اليتيم، وتعليمه وتربيته، فضلا عن بيت مال المسلمين إن وجد .

نداء من شيخ الأزهر محمود شلتوت إلى الأعمام والأوصياء والأمة[3]:

(١ - ٢) انظر كتاب العيال لابن أبى الدنيا (٢/ ٨٢).

(٣) انظر : من توجيهات الإسلام للشيخ شلتوت ـ رحمه الله (ص١٦٣) .

«فيا أيها الأعمام، ويا أيها الأوصياء، كونوا فى الإشراف على اليتامى، فى حذر من غضب الله، واعلموا أن إهمال اليتيم لا يقف ضرره عند اليتيم، بل هو ضرر تتفشى جراثيمه، وتنتشر سمومه فى جسم الأمة كلها، فيعتريها الضعف والانحلال، وتبوء بالخزى والدمار، وشر بيت ـ كما يقول الرسول ﷺ ـ بيت فيه يتيم يساء إليه، وشر أمة، أمة فيها يتامى يساء إليهم، فيهمل أمرهم، وتفسد أخلاقهم، وتنقطع صلتهم بخالقهم، ويكونون لبنات هزيلة فى بناء الأمة، فتسقط من عليائها، وتصبح أثرا بعد عين .

إن الدهر قلب، والناس فى سفينة تتقاذفها أمواج الحياة، ترفعها تارة، وتخفضها أخرى، ولا عاصم إلا من رحم الله، ولا يرحم الله إلا من امتثل أمره، واتبع هداه، ومن كان تحت يده يتيم، فليذكر الله على اليتيم، وليذكر أن ما نزل بغيره، فترك أولاده أيتاما، قد ينزل به، فيترك أولاده هو الآخر أيتاما :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝ ﴾ [النساء] .

الأساس العاطفى الثامن : التوازن فى حب الطفل بلا إفراط أو تفريط :

أفاض الشيخ الجليل محمد الخضر حسين ـ رحمه الله تعالى ـ وهو ينبه إلى ضرورة التوازن فى حب الطفل[1] فقال : من الناس من يدرك أن التقام الأطفال لثدى التربية مما يؤثر فى نفوسهم إصلاحا عظيما، ولكن فرط الرأفة الذى ينشأ عن التغالى فى حبهم، يكسر من صلابة الآباء شيئًا كثيرا، فيدفعهم عن مكافحة طباع أبنائهم الرديئة، ومقاومتها بالتأديب، وينفض بهم ذلك الإهمال إلى التنقل فى مرتع الشهوات الزائفة، كلا، هذه رأفة غير ممزوجة بحكمة . مع أن التنقل فى مراتع

(١) السعادة العظمى (ص ١٠) .

الشهوات تتولد عنه نتائج وخيمة، تثير بين الآباء والأبناء الفرقة والتباعد بمقدار ما كان بينهم من الحنان والمقاربة، وتصير بهم إلى أن تضرسهم أنياب الاضطهاد، وتدوسهم أقدام الامتهان.

لا نريد بكراهية هذه الرأفة المفرطة أن يفتك الصبى من أقدام سائر إرادته، ويسلب منه جميع عزائمه، كما يفعله الجاهلون بأساليب الإصلاح والتهذيب، إن ذلك مما يحول بينه وبين عزة النفس، وما يتبعها من قوة الجأش، وأصالة الرأى، والإقدام على إرسال كلمة الحق عندما يقتضيها المقام، فيكون ألعوبة بين معاشريه كالكرة المطروحة بينهم يتلقفونه رجلا، أو آلة يستعملونها فيما يشتهون .... التربية النافعة ما كانت أثرًا لمحبة يطفئ البأس شيئا من حرارتها، وصرامة تلطف الشفقة من شدتها، وهى التى يستوجب الوالدان دعاء الولد بقوله: ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝﴾ [الإسراء].

ويتابع قوله: ولم يفقه بعض أرباب البيوت، ومن يحاول اللحاق بهم أهمية التربية حتى الآن، فيفرطون فى مجاراة الولد على جميع أهوائه، ويفوضون له أن يقضى ما هو قاض، وربما تغنوا بمديحه فى المجامع الحاشدة، وأطروه بما لا تنطبق شهادة ثماره عليه، ولبئس ما كادوه به لو كانوا يعلمون، إنما نصبوا لهذا المسكين مكيدة تسد فى وجهه أبواب الآداب الجميلة، وتجعل بينه وبين السعادة حجابا مستورا[1].

وقد حذر الله تعالى المؤمن من فتنة حب الولد فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] قال القرطبى فى تفسيره عن عكرمة قال فى تفسير الآية: كان الرجل يريد أن يأتى النبى ﷺ فيقول له أهله: أين تذهب وتدعنا؟ قال: فإذا أسلم وفقُه قال: لأرجعن إلى الذين كانوا ينهون عن هذا الأمر، فلأفعلن ولأفعلن، قال: فأنزل الله عز وجل

(١) السعادة العظمى (ص: ١٠).

﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وقال مجاهد : ما عادوهم فى الدنيا، ولكن حملتهم مودتهم على أن أخذوا لهم الحرام، فأعطوه إياهم .

والآية عامة فى كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد، وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم .

وعن بعض السلف : العيال سوس الطاعات .

وقال ابن مسعود ﷺ : لا يقولن أحدكم : اللهم اعصمنى من الفتنة، فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن ليقل: اللهم إنى أعوذ بك من مضلات الفتن .

وقال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ ﴾ أدخل (من) للتبعيض، لأن كلهم ليسوا بأعداء . ولم يذكر (من) فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن : ١٥] لأنهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما .

روى الترمذى وغيره، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال : رأيت النبى ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين ـ رضى الله عنهما ـ وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل النبى ﷺ فحملهما بين يديه، ثم قال : «صدق الله ـ عز وجل : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن :١٥] نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان، ويعثران، فلم أصبر، حتى قطعت حديثى ورفعتهما» . ثم أخذ ﷺ فى خطبته . انتهى من القرطبى.

وقال ابن كثير فى تفسيره :

قال مجاهد : يحمل الرجل على قطيعة الرحم، أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيع .

وروى ابن أبى حاتم ـ وأسنده ـ عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وسأله رجل عن هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ قال : فهؤلاء رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا فى الدين، فهموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية :﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [التغابن] وكذا رواه الترمذى .

روى الطبرانى ـ وأسنده ابن كثير ـ عن أبى مالك الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : «ليس عدوك الذى إن قتلته كان فوزا لك، وإن قتلك دخلت الجنة، ولكن الذى لعله عدو لك ولدك، الذى خرج من صلبك، ثم أعدى عدو لك، مالك الذى ملكت يمينك» . انتهى من ابن كثير .

وقد فطر الله ـ تعالى حب الأولاد فى قلوب الآباء فقال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

فحب الأولاد مطلوب، ولكن ألاَّ يكون على حساب أوامر الله ـ تعالى ـ وتطبيق شرعه، وألا يفرط ذلك الحب ويطغى على حب نبيه ﷺ وأوامره ونواهيه، وسننه وآثاره، وألا يؤدى إلى الكسب الحرام، والعيش الحرام .

وهكذا تجد أن الرأفة، والحنان، والبناء العاطفى كلما كان متوازنا اقترب نحو البناء الذى يؤتى أكله كل حين بإذن ربه،وبإمكاننا تشبيه الرأفة، والحنان، والعطف مثل وجبة الطعام، فكما أن الإكثار من الطعام يؤدى إلى التخمة والأمراض، فزيادة الحنان تؤدى لمرض الدلال، الذى يؤدى إلى الميوعة، وعدم الجدية.

ولكن يبقى السؤال الذى يطرح نفسه : ما هى الضوابط التى تجعل هذا الحب والعطف متوازنا؟

للإجابة نجد ثلاث قواعد :

القاعدة الأولى : أن تلزم نفسك وولدك شرع الله تعالى[1].

إن حب الولد له حدود، وإن حب الوالدين له حدود كذلك .

إن حب الله ورسوله ﷺ مقدم على أى حب، ويضبط هذا الحب عندما يتعارض أمر الله ورسوله ﷺ مع رغبات الولد أو الوالدين، فهنا يسارع المؤمن إلى حب الله ورسوله ﷺ ويسارع لامتثال الأمر، والابتعاد عن النهى .

فقد أخرج البخارى ومسلم والنسائى عن أنس ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال : «والذى نفسى بيده! لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» .

وروى الترمذى عن سليمان بن عمرو بن الأحوص ـ رحمه الله تعالى ـ قال : حدثنى أبى : أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه، وذكر، ووعظ، ثم قال : «ولا يجنى والد على ولده، ولا يجنى ولد على والده» .

وتعثر الحسن ﷺ والرسول ﷺ على منبره، فنزل، فحمله، وقال: «صدق الله فى كتابه : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾» [التغابن : ١٥] . أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة فى الحسن والحسين معا يمشيان، ويعثران، قال الترمذى: حسن غريب . وفى رواية قال : «صدق الله ورسوله»، وفى أخرى : «صدق الله» .

وفى تقديم سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأمر الله بذبح ولده، وفى تنفيذ الابن قدوة وأسوة لمن يعتبر .

(١) راجع الفصل الأول، فقرة (٧) الأولاد زينة الحياة الدنيا وفتنتها .

وكان سفيان الثورى يعجب بالرجل، فإذا بلغه أنه معيل سقط من عينه، فقلت له فى ذلك، فقال : ما رأيت معيلا إلا وجدته مخلطا[1]. أى يخلط بين الحلال والحرام فى الكسب .

وقال سفيان : إذا عال الرجل ثلاثة، فلا تسأل عن درهمه[2]. وقال سفيان بن عيينة للفضيل بن عياض : يا أبا على، لا تعتد بصاحب عيال ذهب عيالى بحسناتى[3].

وعن حيران بن العلاء الكيسانى : أن عمر بن عبد العزيز ولَّى رجلا يقال له : جعونة أذربيجان، فقال : ياجعونة، إنى قد ومقتك (أى أحببتك)، فاحذرن أن أمقتك (أى أبغضك) وإنى وليتك أذربيجان، فاتق الله، وسر فيهم بكتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، ولا تقولن : أجمع لولدى، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ إن كتب لولدك الغنى، لم يضرهم ألا تترك لهم درهما، وإن كان كتب لهم الفقر لم تنفعهم الدنيا، هل تدرى يا جعونة، ما يحب أهلك لك؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين، يحبون صلاحى . قال : لا، والله، ما يحبون صلاحك، ولكن يحبون ما أقام لهم سوادك، وما أكلوا فى غمارك، وما تركوا على ظهرك، **فاتق الله، ولا تطعمهم إلا طيبا**[4].

وكتب أبو الدرداء إلى بعض إخوانه ـ وخاف عليه حب ولده :

«أما بعد : يا أخى، فإنك لست فى شىء من الدنيا، إلا وقد كان له أهل قبلك، وستكون أهل لمن بعدك، وإنما تجمع لمن لا يحمدك، وتصير إلى من لا يعذرك، وإنما تجمع لأحد رجلين :

ـ إما محسن فيسعد بما شقيت له .

ـ وإما مفسد فيشقى بما جمعت له .

(١ ـ ٤) انظر : كتاب العيال (٢/ ٦١٩) باب : الاغتباط بقلة العيال .

وليس واحد منهما أهلا أن تؤثره على نفسك، ولا تبرك له على ظهرك، ثق لمن مضى منهم رحمة الله، ولمن بقى منهم رزق الله، والسلام.

القاعدة الثانية : أن تكون مضيافًا، كريمًا، شجاعًا، محبًا للعلم :

روى الحاكم عن الأسود بن خلف، والطبرانى عن خولة بن حكيم قال: أخذ النبى ﷺ حسنا فقبله، ثم قال: « إن الولد مبخلة مجبنة، مجهلة محزنة»[1].

وروى الإمام أحمد، والترمذى عن خولة بنت حكيم ـ رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ خرج محتضنا أحد ابنى ابنته، وهو يقول : «والله، إنكم لتبخلون، وتجبنون، وتجهلون، وإنكم لمن ريحان الله».

قال الزمخشرى فى الفائق (١٨٥) : معناه : أن الولد يوقع أباه فى البخل إبقاءً على ماله له، وفى الجهل شغلا به عن طلب العلم، وفى الجبن خوفا من أن يقتل فيضيع ولده بعده، وفى الحزن أنه يحزن لأمره وشأنه، وقوله : «وإنكم لمن ريحان الله يعنى: إنهم يشمون، ويقبلون، فهم من جملة الرياحين التى أنبتها الله»[2].

فما دام الولد مبخلة يورث فى نفس الوالدين الشح والبخل، وذلك من شدة حبهما لأولادهما فى تخزين المال لهم، فعلاج الأمر بإكرام الضيف، وذلك كما فعل الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ وفرح به رسول الله ﷺ، وتعجب الله تعالى من ذلك الإكرام.

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة ﷺ قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت : والذى بعثك بالحق، ما عندى إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك، وقلن كلهن مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ : «من يضيفه يرحمه الله» فقام رجل من الأنصار، يقال له: أبو طلحة، فقال : أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته : هل عندك شىء؟ قالت : لا إلا

(١) صحيح انظر : صحيح الجامع رقم (١٩٠).
(٢) نقلا عن كتاب : العلماء العزاب.

قوت صبيانى، قال : فعللهم بشىء، ونوميهم، فإذا دخل ضيفنا فأريه أنا نأكل، فإذا أهوى بيده ليأكل، فقومى إلى السراج كى تصلحيه، فأطفئيه . ففعلت، فقعدوا، فأكل الضيف، وباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : «لقد عجب الله، أو ضحك الله من فلان وفلانة، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩]، وفى رواية أخرى : «قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة» .

أرأيت لهذا التوازن، وجمال هذا التخطيط فى إكرام الضيف؟! رغم حاجة أولادهم إلى هذا الطعام، فأين التربية الغربية من هذا الجمال؟!

وروى الإمام أحمد عن الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول الله ﷺ فى وفد كندة، فقال لى : «هل لك من ولد؟» قلت : غلام ولد لى فى مخرجى إليه من ابنة حمد، ولوددت أن بمكانه سبع القوم، فقال ﷺ: «لا تقولن ذلك، فإن فيهم قرة عين، وأجرا إذا قبضوا» . ثم قال : «ولئن قلت ذاك، إنهم لمجبنة محزنة، إنهم لمجبنة محزنة» .

وروى البزار عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «الولد ثمرة القلوب، وإنهم مجبنة محزنة»[1].

وعن أبى معاوية الأسود قال : لاتهتم بأرزاق من تخلف، فلست بأرزاقهم تكلف[2].

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال : أمرنا رسول الله ﷺ يوما أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندى، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، فجئت بنصف مالى، فقال رسول الله ﷺ : «ما أبقيت لأهلك؟» فقلت : مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده،

(١) انظر : كتاب العيال (٢/ ٦١٩) باب : الاغتباط بقلة العيال .
(٢)انظر : تفسير ابن كثير تفسير سورة التغابن، آية (١٤).

فقال : «يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟» فقال : أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت : لا أسابقك إلى شيء أبدا . رواه الحاكم فى مستدركه (١/ ٤١٤) وقال : صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبى .

ومما فعله السلف الصالح أنهم إذا أهدوا من الوالى أو الخليفة شيئا أن ينفقوه فى وجوه البر والخير :

روى ابن أبى الدنيا فى كتاب العيال (٢/ ٦٤٣) عن مسعر قال : «أرسل ابن هبيرة (وكان والى البصرة والكوفة) إلى عون بن عبد الله (كان إماما فى العلم وهو من الثقات الأثبات) بعشرة آلاف درهم، فردها عليه، وأعادها إليه، وغضب، وقال : لئن لم يقبلها، لأفعلن ولأفعلن، فقال له أصحابه : اقبلها، واشتر بها صنعة تكون عقدة لك، ولولدك من بعدك، وذخرا .

قال : هذا رأيكم؟! قالوا : نعم . فقبلها، فتصدق بها، وقال : إنى رأيت أن أجعل هذه عقدة لى عند الله ـ عز وجل ـ وذخرا لولدى من بعدى .

وإما أن تكون شجاعا فى سبيل الله، وذلك حتى لا يطغى حب الولد فيورث الجبن والخوف والذعر عن الجهاد فى سبيل الله، وبالتالى تحصل الهلكة للمجتمع كله إذا ابتعد كل فرد عن الجهاد فى سبيل الله، وفى ذلك تنبيه وتحذير من الله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة] .

لقد جعلت الآية الكريمة الدين أثمن وأغلى شيء للإنسان، فهو أغلى وأثمن من الآباء والأمهات والأبناء والعشيرة والأقرباء والمال والوطن .... الدين والإيمان

هو أغلى من أولئك جميعا، فإذا تضاربت مصلحة الدين مع أحد من أولئك، قدم المؤمن مصلحة الدين، ولم يلتمس الأعذار؛ لأن المحاسب على ذلك هو الله خالق البشر، وليس المحاسب هو البشر؛ ولأن فى حياة الدين حياة المجتمع المسلم، وفى ضعفه ضعف للمجتمع المسلم، ومن أبواب الشجاعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهى تختص بمن فقه مسألة شرعية على النحو المطلوب، وعرف المحرمات والنواهى، وغلب على ظنه حصول مصلحة، وإن المصلحة تغلب المفسدة فى التبليغ فإنه يبادر لذلك، وقد قال على ـ كرم الله وجهه : «واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لا يقطع رزقا، ولا يقرب أجلا»[1].

فعلى ـ كرم الله وجهه ـ عالج مشكلة نفسية تنتاب المسلم عندما يقدم على الأمر بالمعروف أو النهى عن المنكر، فيأتيه الشيطان ليثبطه عن ذلك، ويأتيه من باب رزق العيال، وقوت العيال، والدنيا أكل عيش، ويهدده بالموت، ويوسوس إليه أن حياة الأولاد ستضيع من بعده ... إلخ .

القاعدة الثالثة : الصبر على مرض ووفاة الطفل، واحتسابه عند الله تعالى :

١ ـ الصبر على مرض الطفل :

روى الترمذى عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :« ما يزال البلاء ينزل بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة»[2].

وفى رواية لمالك : «ما يزال المؤمن يضار فى ولده وحامته ـ أى : خاصته وقرابته ـ حتى يلقى الله، وليست له خطيئة» .

وروى أبو داود عن محمد بن خالد السلمى ـ رحمه الله ـ عن أبيه عن جده، وكانت له صحبة، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن العبد إذا سبقت له من

(١) انظر : مختصر ابن كثير (١/ ٥٣١) .

(٢) صحيح انظر : صحيح الجامع رقم (٥٨١٥)، ورواه أحمد، والحاكم، وابن أبى الدنيا، وأبو نعيم فى (الحلية) .

الله منزلة، فلم يبلغها، ابتلاه الله تعالى فى جسده، أو فى ماله، أو فى ولده»، زاد فى رواية : «ثم صبره على ذلك، حتى يبلغه المنزلة التى سبقت له من الله عز وجل»[1].

٢ ـ أجر الصبر على وفاة الطفل :

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف]

قال ابن كثير فى التفسير : أى : يحملهما حبه على متابعته على الكفر . وقال قتادة : قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقى لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب .

وروى الترمذى[2]، وقال : حديث حسن، عن أبى موسى ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال : «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته : قبضتم ولد عبدى؟ فيقولون : نعم، فيقولون : قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون : نعم، فيقول : فماذا قال عبدى؟ فيقولون : حمدك واسترجع ـ أى : قال :إنا لله وإنا إليه راجعون ـ فيقول الله تعالى : «ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة، وسموه بيت الحمد» .

والرسول ﷺ قدوة للمصابين بفقد الأبناء، فقد أولاده الذكور وهم صغار، فقد مات ولده القاسم وهو ابن سنتين رواه ابن سعد (١/ ١٣٣)، ثم مات ولده عبد الله، فقال العاص بن وائل : لقد انقطع نسله فهو أبتر فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ [الكوثر]، وقد ذكر غير واحد من الرواة أنهما ماتا قبل البعثة .

ثم ماتت بناته كلهن إلا فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ماتت بعد وفاة الرسول ﷺ

---

(١) فى سنده محمد بن خالد، وهو مجهول، ولكن يشهد لمعناه الحديث الذى قبله. انظر : جامع الأصول (٩/ ٥٨٥) تحقيق الأرناؤوط .

(٢) انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (١٠٤٨) .

بستة أشهر، وكانت أول من لحقت به من أهله، كما بشرها الرسول ﷺ بذلك .

وروى البخارى ومسلم بعضه عن أنس ﷺ : أن رسول الله ﷺ دخل على ابنه إبراهيم ﷺ وهو يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله؟ فقال : «يا بن عوف إنها رحمة»، ثم أتبعها أخرى فقال : «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» .

قال الحافظ ابن حجر معلقا على الحديث : قال ابن بطال وغيره : هذا الحديث يفسر البكاء المباح، والحزن الجائز، وهو ما كان بدمع العين، ورقة القلب، من غير سخط لأمر الله، وهو أبين شيء وقع فى هذا المعنى، وفيه مشروعية تقبيل الولد، وشمه، ومشروعية الرضاع، وعيادة الصغير، والحضور عند المحتضر، ورحمة العيال، وجواز الإخبار عن الحزن، وإن كان الكتمان أولى، وفيه وقوع الخطاب للغير وإرادة غيره بذلك، وكل منهما مأخوذ من مخاطبة النبى ﷺ ولده، مع أنه فى تلك الحالة لم يكن ممن يفهم الخطاب لوجهين، أحدهما : صغره، والثانى : نزاعه، وإنما أراد بالخطاب غيره من الحاضرين، إشارة إلى أن ذلك لم يدخل فى نهيه السابق .

وفى الصحيحين عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من مسلم يموت له ثلاثة، لم يبلغوا الحنث، إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم»[1].

وفى الصحيحين أيضا عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد، لا تمسه النار إلا تحلة القسم» . ومعنى ـ تحلة

(١) الأحاديث الواردة فى موت ثلاثة أولاد،أو ولدين، أو ولد واحد حجاب من النار . أخرجها البخارى كتاب (٣)الباب(٣٦) باب (٩٢) وكتاب (٩٦) باب (٩) ومسلم كتاب(٤٥) حديث (١٥٠-١٥٦) والترمذى كتاب (٨) باب(٣٦) و(٦٤) والنسائى كتاب(٢١) باب (٢٤-٢٦) وابن ماجه كتاب (٦) باب (٥٦) والموطأ كتاب (١٦) حديث (٣٨-٤٠) وابن سعد جزء (٤) قسم (١) ص (٧٢)، وأحمد جزء (١،٢١٥، ٣٧٥، ٤٤١، ٤٢٩، ٢ / ٢٣٩، ٢٤٦، ٢٧٦) . والطيالسى حديث (٢٦٢، ٨٠٨، ٢٣٠٤).

القسم ـ قوله : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم : ٧١] والورود هو : العبور على الصراط، وهو جسر منصوب على ظهر جهنم .

قال الحافظ ابن حجر معلقا على الحديثين[1]: والمعنى : لم يبلغوا الحلم، فتكتب عليهم الآثام، قال الخليل : بلغ الغلام الحنث : إذا جرى عليه القلم، والحنث : الذنب، قال الله تعالى : ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة] وقيل : المراد إذا بلغ إلى زمان يؤخذ بيمينه إذا حنث، وقال الراغب : عبر بالحنث عن البلوغ لما كان الإنسان يؤخذ بما يرتكبه فيه، بخلاف ما قبله، وخص الإثم بالذكر، لأنه الذى يحصل بالبلوغ، لأن الصبى قد يثاب، وخص الصغير بذلك؛ لأن الشفق عليه أعظم، والحب له أشد، والرحمة له أوفر، وعلى هذا فمن بلغ الحنث لا يحصل لمن فقده ما ذكر من هذا الثواب، وإن كان فى فقد الولد أجر فى الجملة، وإن أولاد المسلمين فى الجنة، لأنه يبعد أن الله يغفر للآباء بفضل رحمتهم للأبناء، ولا يرحم الأبناء .

قال المهلب : وكون أولاد المسلمين فى الجنة، قاله الجمهور، ووقفت طائفة قليلة[2].

قال البيهقى فى كتاب «الاعتقاد» فصل: الأطفال أنهم يولدون على فطرة الإسلام :

ثم أكرم الله تعالى أمته بإلحاق ذرية المؤمن به، وإن لم يعملوا عمله، فجاءت أخبار بدخولهم الجنة، فعلمنا بها جريان القلم بسعادتهم، فمنها حديث أبى هريرةﷺ عن النبى ﷺ : «صغارهم دعاميص الجنة» .

وفى حديث أبى هريرة ﷺ أيضا عن النبى ﷺ : «أولاد المسلمين فى جبل فى الجنة، يكفلهم إبراهيم، وسارة عليهما السلام، فإذا كان يوم القيامة دفعوا إلى آبائهم» .

---

(١) فتح البارى (٣ / ٣٦٧) .
(٢) المصدر السابق (٣ / ٤١٨) .

وفى حديث معاوية بن قرة عن أبيه عن النبى ﷺ فى قصة الرجل الذى مات ابن له، قال : فعزاه النبى ﷺ فقال : «يافلان، أيما أحب إليك : أن تمتع به عمرك أو لا تأتى غدا بابا من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك؟» فقال : يا نبى الله، لا، بل يسبقنى إلى أبواب الجنة أحب إلى ، قال : «فذاك لك» . فقام رجل من الأنصار، فقال : يانبى الله، جعلنى الله فداك، أهذا لهذا خاصة؟ أو من هلك له طفل من المسلمين كان ذاك له؟ قال : «من هلك له طفل من المسلمين كان ذاك له» .

وقال الشافعى ـ رحمه الله : وقد جاءت الأحاديث فى أطفال المسلمين أنهم يدخلون الجنة .

وعن أم حبيبة أنها كانت عند عائشة رضى الله عنها فجاء النبى ﷺ حتى دخل عليها، فقال : «ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث، إلا جىء بهم يوم القيامة حتى يوقفوا على باب الجنة، فيقال لهم : ادخلوا الجنة، فيقولون : حتى يدخل آباؤنا، فيقال لهم : ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم» . رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن جيد .

وعن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ : أنه قال : «من أثكل ثلاثة من صلبه، فاحتسبهم على الله فى سبيل الله عز وجل، وجبت له الجنة». رواه أحمد والطبرانى ورواته ثقات .

وفى الصحيحين عن أبى زيد أسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وحبه وابن حبه رضى الله عنهما قال : أرسلت بنت النبى ﷺ أن ابنى قد احتضر فاشهدنا، فأرسل يقرئها السلام، ويقول : «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شىء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب» فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال ـ رضى الله عنهم، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبى، فأقعده فى حجره، ونفسه تقعقع، ففاضت

عيناه ﷺ فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال : «هذه رحمة، جعلها الله تعالى فى قلوب عباده» .

وفى رواية : «فى قلوب من شاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء» .

وروى مسلم عن أبى هريرة ﷺ: أن امرأة أتت النبى ﷺ بصبى لها، فقالت: يا رسول الله، ادع الله له، فقد دفنت ثلاثة، فقال : «لقد احتظرت بحظار شديد من النار، دعاميص الجنة، يلقى أحدهم أباه، فيأخذ بناحية ثوبه،فلا يفارقه حتى يدخل الجنة».

روى مسلم عن أبى هريرة ﷺ قال: جاءت امرأة إلى النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنا لا نقدر عليك فى مجلس، فواعدنا يوما نسألك فيه، فقال : «موعدكن بيت فلان». فجاءهن بذلك الموعد، وكان فيما حدثهن : «ما منكن امرأة يموت لها ثلاث من الولد، فتحتسبهم، إلا دخلت الجنة» فقالت امرأة : واثنان؟ قال : «واثنان» .

وروى النسائى عن أم قيس بنت محصن رضى الله عنها قالت : توفى ابنى، فجزعت عليه، فقلت للذى يغسله : لا تغسل ابنى بالماء البارد فتقتله، فانطلق عكاشة بن محصن إلى رسول الله ﷺ فأخبره بقولها، فتبسم، ثم قال : «طال عمرها» فلا نعلم أن امرأة عمرت ما عمرت .

وروى مالك عن سعيد بن المسيب قال : صليت وراء أبى هريرة على صبى لم يعمل خطيئة قط، فسمعته يقول : اللهم أعذه من عذاب القبر .

وروى البخارى عن الحسن بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ قال : يقرأ على الطفل فاتحة الكتاب، ويقال : اللهم اجعله سلفا، وفرطا، وذخرا، وأجرا .

وروى عبد الرزاق فى مصنفه (٦/ ١٥٩) عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ : «إن ذرارى المؤمنين فى شجرة عماد الجنة، يكفلهم أبوهم إبراهيم عليه السلام» .

وروى أيضا (٦/ ١٦٠) عن محمد بن سيرين قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوا الحسناء العاقر، وتزوجوا السوداء الولود، فإنى أكاثر بكم الأمم يوم القيامة،حتى السقط[١] يظل محبنطئا[٢] فقال : ادخل الجنة، فيقول : حتى يدخل أبواى، فيقال: ادخل أنت وأبواك» .

وروى أيضا (٦/ ١٦٠) عن عبد الملك بن عمير، وعاصم ابن بهدلة : أن النبى ﷺ قال : «وإن أطفال الأمم المسلمين يقال لهم يوم القيامة : ادخلوا الجنة، فيتعلقون بأحقاء آبائهم وأمهاتهم، فيقولون : ربنا آباءنا وأمهاتنا! قال : فيقال لهم : ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم وأمهاتكم، قال : يجىء السقط، فيقال له : ادخل الجنة، قال : فيظل محبنطئا ـ أى : متفاعسًا ـ فيقول : أى رب أبى وأمى، حتى يلحق به أبوه وأمه» .

روى الإمام أحمد ومسلم عن أنس مرفوعا : «إن إبراهيم ابنى، وإنه مات فى الثدى، وإن له ظئرين يكملان رضاعه فى الجنة» .

وعن بعض أصحاب النبى ﷺ : أنه سمع النبى ﷺ يقول : «إنه يقال للوالدين يوم القيامة ادخلوا الجنة، قال : فيقولون : يارب، حتى تدخل آباءنا وأمهاتنا، قال : فيأبون، قال : فيقول الله عز وجل : ما لى أراهم محبنطئين؟! ادخلوا الجنة، قال : فيقولون : يارب، آباؤنا! فيقول : ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم» رواه أحمد، ورجاله ثقات، كذا قاله الهيثمى فى المجمع (٣/ ١١) و (١٠/ ٣٨٣) .

وإن الزوجة الصالحة تلعب دورا كبيرا فى الصبر على وفاة الطفل، وتصبر زوجها، وتنتصر على عاطفة الأمومة فى مقابل إدخال السرور على قلب زوجها، وأمامنا حادثة تؤكد ذلك، وهى قدوة لكل زوجة صالحة بعدها:

---

(١) السقط بكسر السين: الولد ذكرا كان أو أنثى، يسقط قبل تمامه، وهو مستبين الخلق، يقال : سقط الولد من بطن أمه سقوطا، فهو سقط بالكسر، والتثليث لغة، ولا يقال : وقع انظر: الفتح الربانى بترتيب مسند الإمام أحمد للشيخ أحمد البنا الساعاتى رحمه الله وولده (٧/ ٢٠٧) .

(٢) أى : متغضبا، والمحبنطئ، بالهمز : المتغضب المستبطئ للشىء، وقيل : هو الممتنع امتناع طلبة لا امتناع إباء، كذا فى النهاية.

روى البخارى عن أنس ﷺ قال: مات ابن لأبى طلحة، وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد هيات شيئا، ونحته فى جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة، قال : كيف الغلام؟ قالت : قد هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح، فبات، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى مع النبى ﷺ ثم أخبره بما كان منهما، فقال رسول الله ﷺ : «لعل الله تعالى أن يبارك لكما فى ليلتكما» قال رجل من الأنصار : فرأيت له تسعة أولاد، كلهم قد قرؤوا القرآن .

وفى رواية أحمد فى مسنده (٣/ ٢٨٧) تفصيل لطيف، فعن أنس ﷺ أن أبا طلحة مات له ابن، فقالت أم سليم : لا تخبروا أبا طلحة حتى أكون أنا الذى أخبره، فسجت عليه، فلما جاء أبو طلحة، وضعت بين يديه طعاما، فأكل، ثم تطيبت له، فأصاب منها، فعلقت بغلام، فقالت : يا أبا طلحة، إن آل فلان استعاروا من آل فلان عارية، فبعثوا إليهم : ابعثوا إلينا بعاريتنا، فأبوا أن يردوها، فقال أبو طلحة : ليس لهم ذلك، إن العارية مؤداة إلى أهلها، قالت : فإن ابنك كان عارية من الله عز وجل، وأن الله عز وجل قد قبضه، فاسترجع (أى : أبو طلحة) قال أنس : فأخبر النبى ﷺ بذلك فقال : «بارك الله لهما فى ليلتهما» قال : فعلقت بغلام .... الحديث .

وأورد النووى ـ رحمه الله ـ فى كتابه «بستان العارفين» حوادث لطيفة فى تعزية الآباء على فقد أبنائهم، فقال ـ رحمه الله :

قال الشافعى ﷺ : مات ابن للحسين بن على ﷺ، فلم ير عليه كآبة، فعوتب فى ذلك، فقال : إنا أهل بيت نسأل الله تعالى فيعطينا، فإذا أراد ما نكره فيما يحب رضينا .

قال : وكتب رجل إلى بعض إخوانه يعزيه بابنه : أما بعد، فإن الولد على والده ما عاش حزن وفتنة، وإذا قدمه فصلاة ورحمة، فلا تجزع على ما فاتك من حزنه وفتنته، ولا تضيع ما عوضك الله من صلاته ورحمته[1].

(١) بستان العارفين (ص٥٥-٥٦) .

وقال التابعى الصالح أبو مسلم الخولانى : «لأن يولد لى مولود، يحسن الله نباته، حتى إذا استوى على شبابه، وكان أعجب ما يكون إلى، قبضه الله منى، أحب إلى من أن يكون لى الدنيا وما فيها» . رواه أبو نعيم فى الحلية (٢/ ١٢٧) .

٣ ـ إكمال الطفل المتوفى رضاعه فى الجنة :

وروى البخارى عن البراء ﷺ قال: لما توفى إبراهيم ابن الرسول ﷺ قال رسول ﷺ : «إن له مرضعا فى الجنة» .

وفى رواية لأحمد : «إن له فى الجنة من يتم رضاعه، وهو صديق»[١] .

وفى رواية لمسلم : «إن إبراهيم ابنى وإنه مات فى الثدى، وإن له لظئرين فى الجنة تكملان رضاعه فى الجنة»[٢] .

وروى ابن ماجه[٣] ـ كتاب ما جاء فى الجنائز ـ عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين بن على ـ رضى الله عنهم ـ قال : لما توفى القاسم ابن رسول الله ﷺ قالت خديجة رضى الله عنها : يا رسول الله، درت لبينة القاسم، فلو كان الله أبقاه حتى يستكمل رضاعه؟ فقال رسول الله ﷺ : «إن إتمام رضاعه فى الجنة» .

قالت : لو أعلم ذلك يارسول الله، لهون على أمره؟ فقال رسول الله ﷺ : «إن شئت دعوت الله تعالى ـ فأسمعك صوته» قالت : يارسول الله، بل أصدق الله ورسوله ﷺ .

٤ ـ الصلاة على الطفل المتوفى، والسقط :

وفى زيادة الرحمة على الطفل ورفع درجاته، وفى إدخال مشاركة المسلمين لأهل الطفل المتوفى لتخفيف الحزن عنهم، شرع الرسول ﷺ الصلاة على الطفل المتوفى، وقبول العزاء فيه .

---

(١) الفتح الربانى للساعاتى(٧/ ٢٠٧) .
(٢) فى سنده مبهم ومتروك .
(٣) فى مسنده مبهم ومتروك.

روى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (وفى رواية الطفل) يصلى عليه ويدعى لوالديه بالمغفرة والرحمة، قال البنا الساعاتى ـ رحمه الله ورحم ولده حسنًا ـ فى الفتح الربانى(٧ / ٢٠٧) : ورواه النسائى وابن ماجه والبيهقى والترمذى وقال : حديث حسن صحيح، ثم قال فى (١/ ٢١٠) :

«وقد ذهب جمهور العلماء إلى مشروعية الصلاة على الصبى، قال النووى ـ رحمه الله : أما الصبى فمذهبنا ومذهب جمهور السلف والخلف وجوب الصلاة عليه، ونقل ابن المنذر رحمه الله الإجماع فيه» .

ثم نقل المناقشة فى حكم المولود الذى يسقط قبل ميعاده، وأقوال العلماء فيه وخلاف العلماء فى حكم الصلاة عليه، فمنهم من قال : بالوجوب مطلقا، ومنهم من فصل : قبل أربعة أشهر، أى : قبل أن تنفخ فيه الروح، وفى مشاركة المسلمين فى الصلاة على الطفل، وقبول أهله العزاء، من أعظم الأساليب النفسية النبوية فى التخفيف عن الأم صدمة وفاة الطفل، وخاصة عندما يكون المتوفى هو البكر .

أما الطفل فقد ذهب إلى جنان الخلد، ينتظر والديه على باب الجنة، لايدخل حتى يدخل والداه معه . ويكون هذا الطفل سببا فى بناء بيت الحمد لوالديه فى الجنة، إن صبرا وسلما أمرهما لله تعالى، كما ورد معنا آنفا . وتستأنف كتابة أجر المصيبة كلما ذكر والداه طفلهما، واسترجعا أى قالا : إنا لله وإنا إلى الله راجعون، فتجدد الحسنات بتجدد ذكريات الألم، بشرط الاحتساب عند الله تعالى .

فيا لفضل الله الواسع، ورحمته الكبيرة، وأجره الوافر، وكرمه الجزيل، ومنته العظمى، وثوابه العميم، لهذا الأب وتلك الأم وذلك الطفل . اللهم إنى أشهدك، وأشهد حملة عرشك، أن لك ما أعطيت ولك ما أخذت من بكر أولادى عبد الله[1]

(١)توفى فى (١٧/ رجب/ ١٤٠٦-٣٠/ ١٢/ ١٩٨٥) وكنت فى العمل ـ فى الكويت ـ وكانت أمه تدرس فى الجامعة، وتم دفنه فى مقبرة الصليبيخات فى الكويت ظهرا فى جناح الأطفال، وكان ألم الفرقة كبيرا، كل ذلك حصل قبل طباعة هذا الكتاب، ولشدة ألم الفراق أسهبت فى نقل الأحاديث والآثار لتكون سلوانا لى، لمن يصاب بذلك وإنا لله وإنا إليه راجعون .

فأحتسبه لديك، فأنت خير مأمول، فلك الحمد ولك الشكر .

٥ ـ الموت حق ولا علاقة للظواهر الكونية بموت أحد :

فعندما توفى إبراهيم ابن الرسول ﷺ . وحزن عليه، ودمعت عيناه الشريفتان ﷺ، كيف لا، وهو القدوة فى كل شىء للبشرية جمعاء، فكسفت الشمس، فقال الناس: لقد انكسفت الشمس لموت إبراهيم ابن الرسول ﷺ، فصعد الرسول ﷺ وأعلن للأمة جميعا إلى يوم القيامة :

«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته» رواه مسلم وهذا لفظه، والبخارى والترمذى والنسائى وغيرهم .

وبذلك بين الرسول ﷺ أن الشمس والقمر وما يحصل لهما من تغيرات وأحوال، إنما ذلك آية من عند الله، لا علاقة لها باتحاد موعد تلك الآية بوفاة أحد من البشر، حتى لو كان ابن الرسول ﷺ، وفى ذلك توجيه عقل المسلم نحو تأمل تلك الظواهر الكونية، واستنباط أسبابها ومسبباتها، والتوجه إلى الله تعالى بالصلاة والدعاء والذكر لكشف الكسوف للشمس والخسوف للقمر، خشية أن يكون ذلك ظاهرة عذاب تنزل على البشر .

ولتبقى القلوب متجهة إلى خالقها، والتأمل فى تلك الآيات .

وهكذا وجدت ـ يا أخى ـ أن الولد الصالح خير كله، سواء عاش بعد أبويه، فيرفع درجات والديه باستغفاره لهما، أو مات قبلهما كان سببا فى دخولهما الجنة، ولهذا قال ابن القيم عن الولد : إن عاش بعد أبويه نفعهما، وإن مات قبلهما نفعهما[1] .

(١) فى أحكام المولود (ص١٤) .

الأساس العاطفى التاسع : شراسة الصغير دلالة على حدة الذكاء فى الكبر :

روى أنس ﷺ مرفوعا : «عرامة الصبى فى صغره، زيادة فى عقله فى كبره» . رواه الحكيم الترمذى عن عمرو بن معد يكرب، وأبو موسى فى أماليه عن أنس، ورواه عنه الديلمى، ورمز السيوطى إلى صحته فى الجامع الصغير (٤/ ٣١٠) .

ثم شرحه المناوى بالشكل التالى :

(عرامة الصبى فى صغره) : أى : حدته وشراسته، وإذا العرام : كغراب، الحدة والشرس .

وقال الحكيم : العرم : المنكر، وإنما صار منكرا، لصغره، فذاك من ذكاوة فؤاده، وحرارة رأسه .

فالصبى إذا بدا منه زيادة بصر فى الأمور وذكاء، قيل : عارم، والعرم بلغة اليمن : السد فالصبى يسد باب البلاهة بزيادة ذلك النور، فيهتدى للطائف الأمور .اهـ .

كثيرون من الآباء يشتكون من شراسة أطفالهم، ويطلبون علاجا لعنادهم، وقوة بأسهم، ويرون ذلك أنه مذمة فى الطفل، فالحديث يثبت عكس ذلك .

ولابد أن نميز بين الشراسة النفسية التى تنشأ فى الطفل، من عناده فى بعض الأمور، وبين قلة الأدب المرافقة لتلك الشراسة، فعلامة الصحة النفسية تكون برفض الواقع السيئ الذى يحس به الطفل، والتعبير عن ذلك إن كان بأدب فهو محمود وإن كان بلا أدب فهو المذموم .

ومثاله فى الكبار : الإسلام حق، ولكن أسلوب الإنسان فى العرض إن كان جيدا شد الناس إلى الإسلام، وإن كان فظا غليظا انفض الناس من حوله .

كذلك هنا قوة نفسية الطفل، يعبر عنها بالشراسة، فكبتها فى الطفل تؤذيه، وتوجيهها بالأدب، وتغذيتها بتعليمه حسن التعبير عن مراده، تقويه، وتزيده بأسا وفهما .

والشراسة دليل لرفض الواقع الأسرى أو الاجتماعى، وهى علامة صحة نفسية، وخاصة فى الواقع الحالى المخالف لتعاليم الإسلام فى كثير من جوانبه . فإذا تمرد الطفل المؤمن الغيور على دينه على واقع أسرته المخالف لتعاليم الإسلام، فذاك محض الإيمان وأحسن صوره، ولكن يبقى ضرورة إكساب الطفل الآداب، التى مرت معنا حتى لا تناله الألسن بقلة الأدب ولا تتهامس عنه .

الإسلام جاء ليغير الواقع المنحرف إلى الواقع الإسلامى ورقى المجتمع من الكفر إلى الإيمان، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان والقوانين والعادات والتقاليد إلى عدل الإسلام .

فهو بهذا الاعتبار قد غذَّى التمرد على الواقع المنحرف فى نفس المؤمن عامة، ولو استمرأ الناس الفسق والفجور لزال منهم أضعف الإيمان، كما أخبر الرسولﷺ : «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» رواه مسلم .

وفى شراسة الطفل فائدة عقلية تدل على فرط الذكاء، وقوة التفكير، وحسن الرأى. إذ لولا ذلك لما حصل التمرد فى نفس الطفل .

وهذا التمرد الإيجابى المفيد نابع من غيرة دينية، وحماس إيمانى، وحب لله ورسوله ﷺ .

أما التمرد السلبى، فهو التمرد نحو الفسق والفجور والكذب، والسلوك المشين، فهذا الذى يحتاج إلى علاج وتقويم وتصحيح، فإذا حصل ذلك ـ لا سمح

الله ـ فى الطفل فعلاجه بتقوية العقيدة والإيمان فى نفس الطفل، وليس بعلاج النتيجة، أى بعلاج التمرد نفسه، وإنما بعلاج الأساس المنبعث منه التمرد السلبى، فإذا ما تذوق العقيدة بتحبيبه بالقرآن، وربطه برسول الله ﷺ، وسيرته الشريفة، كان ذلك أنفع للطفل، إذ سرعان ما يتحول قلبه من التمرد السلبى إلى التمرد الإيجابى، وسرعان ما تتغير بوصلة القلب من الفسق إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، وصدق رسول الله ﷺ : «وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب» رواه مسلم . فتغذية القلب بالإيمان يحرك الأعضاء والجسد إلى السلوك الصحيح المستقيم، وإفساد القلب بأخبار الفساق وملذات الدنيا، ينتج عنه السلوك المنحرف .

فإذًا نفس الشراسة والعناد لايتم كبتها؛ لأن فيه إيذاء وإخمادًا لنفس وعقل الطفل، وإنما يتم تغيير توجهها من الباطل إلى الحق، ومن الانحراف إلى الاستقامة .

ذات الشراسة والتمرد محمود لا مذموم، وإنما المذموم طريقة سلوكية تلك الشراسة من الطفل.

وأضرب مثالا حيًّا وهو إقامة الصلاة،وهى مشكلة عند بعض الآباء وسهلة عند البعض .

فترك الطفل بلا توجيه إيمانى، ولا تلاوة قرآنية، ولا قصص عن سيرة الرسول ﷺ ولا عن قصص القرآن، يقابله لهو الطفل، سواء مع أصدقاء السوء أو قضاء ساعات أمام الرائى (التلفاز) ثم يقول أحد الوالدين للطفل : قم إلى الصلاة، تعال صل معى يا بنى، تعال صل وأنا أعطيك كذا، كل ذلك نتيجته ستكون رفض الطفل للصلاة، بل وأحيانا كراهيته للصلاة، ويتمرد الطفل على والديه، ويأتى الآباء ليقولوا : لقد أمرنا الطفل بالصلاة ولم يصل، إنه عنيد، إنه شرس، أنا لا

أستطيع على إصلاحه، كيف أفعل؟

الجواب : ربط الطفل بالعقيدة، وإملاء وقته بالصلاح، وإيجاد أنشطة أسرية جماعية، بحيث تخرج الطفل من دائرته إلى دائرة والديه، وبعد حصول الارتباط الأسرى يأتى دور التوجيه الدينى والأخلاقى، وبعد أن يعايش الوالدان أطفالهم، يأتى دور كلام الأمر والنهى، أما قبل ذلك، فهو رمى بلا هدف، وبلا فائدة . والله أعلم، وفقنى الله وإياك لحسن القول والعمل .

الأساس العاطفى العاشر : تعبير رؤيا الطفل بتفاؤل الخير وربطه بالله تعالى :

قص الله تعالى علينا رؤيا سيدنا يوسف وهو يحكيها لوالده فقال سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ (١) إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ [يوسف].

وفى ذلك عدة عبر نفسية تربوية منها :

١ ـ محادثة الابن لأبيه فى كل ما يجول بخاطره حتى الرؤيا المنامية .

٢ ـ حسن نداء الابن لأبيه بيا أبت .

٣ ـ عرض رؤيا الطفل على أبيه كاملة .

٤ ـ تفسير الأب لرؤيا ابنه تفسيرا يزرع به التفاؤل، وتكريم الله تعالى له فى المستقبل، وتحذيره من تحديث إخوته برؤياه .

٥ ـ إثبات وجود الكيد والحسد والغيرة بين الإخوة، وإن الكيد والحسد يأتى من

(١) فيه دلالة على جواز تسمية العم أبا .

الكبير تجاه الصغير وليس العكس .

٦ ـ ربط الطفل بالله تعالى وإنعامه وتحديث الطفل بفضل الله ورحمته وكرمه والله أعلم .

وروى البخارى عن سمرة بن جندب قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة، أقبل علينا بوجهه، فقال : «من رأى منكم الليلة رؤيا؟» قال : فإن رأى أحد رؤيا قصها، فيقول : «ما شاء الله» ... الحديث . وفى رواية لمسلم قال : كان النبى ﷺ إذا صلى الصبح أقبل عليهم بوجهه فقال : «هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا» .

لهذا أحب الصغار أن يشاركوا فى الرؤيا وطلب تعبيرها من الرسول ﷺ . روى مسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : كان الرجل فى حياة رسول الله ﷺ إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله ﷺ، فتمنيت أن أرى رؤيا أقصها على النبى ﷺ قال : كنت غلاما شابا عزبا، وكنت أنام فى المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيت فى النوم كأن ملكين أخذانى، فذهبا بى إلى النار، فإذا هى مطوية كطى البئر، وإذا لها قرنان كقرنى البئر، وإذا فيها ناس قد عرفتهم، فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، قال فلقيهما ملك، فقال لى : لم ترع، فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ فقال النبى ﷺ : «نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلى من الليل» . ورواه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد والدارمى .

فلا بأس من سؤال الأطفال فى كل صباح عن رؤياهم، وتعبيرها لهم بما فيه الخير وعمله، والنوافل وعملها، والطاعات والمسارعة إليها، وبالله التوفيق .